التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة

تأليف
فضيلة الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الموصوف بصفات العظمة والكبرياء والكمال، المنزه عن الشريك، والنقص، والشبه، والمثال، وأشهد أنه المُتَفَرِّد بالوحدانية المستحق لِإفراده بالعبودية في كل الأحوال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم في العقائد، والأخلاق، والأقوال، والأفعال.

أما بعد: فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المُسماة بـ(الواسطية) التي جمعت على اختصارها ووضوحها جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان وعقائده الصحيحة، وهي وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني - تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتبين وجه دلالتها على المقصود، وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببعض، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد والإشارة إلى بعضِ آثارها وفوائدها في القلوب والأخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى تنبيهٍ عليه، وأرجو الله أن يكون هذا التَعليق على هذا الوصف، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم مقربًا إليه نافعًا، سهلًا في ألفاظه ومعانيه آمين.

❁ قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

[١] الحَمْدُ لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣] وَكَفَى بالله شَهِيدًا.

❁ الشَّرح ❁

قال المصنف رحمه الله وقدس الله روحه في عليين:

الحمد لله؛ أي: جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها.

ومما يحمد عليه نعمه على العباد التي لا يُحصي أحد من الخلق تعدادها.

وأعظمها إرساله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين.

﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ على جميع الأديان بالحجة والبرهان وبالعز والسلطان.

(وكفى بالله شهيدًا) على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به.

وشهادته تعالى بقوله وفعله، وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة الدال كل واحد منها - فكيف بجميعها- على رسالته وصدقه، وأن جميع ما جاء به هو الحق من عقائد وأخلاق وآداب وأعمال وغيرها.

❁❁❁

[٢] وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا.

❁ الشَّرح ❁

أي: أقر وأعترف مصدقًا ومنقادًا أنه لا يستحق الألوهية- وهي التفرد بكل كمال- إلا الله، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له.

ولهذا قال:

(إقرارًا به) أي: بالقلب واللسان.

(وتوحيدًا) أي: إخلاصًا لله في كل عبادة قولية أو عملية أو اعتقادية.

وأعظم ما يُوحَّد به ويتقرب إليه به تحقيق العقيدة السلفية المحتوي عليها هذا

الكتاب، وبتحقيق العقيدة تصلح الأعمال وتقبل وتستقيم الأمور.

❁❁❁

[٣] وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

❁ الشَّرْح ❁

الشهادة للرسول بالرسالة.

والعبودية مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد، لا يكفي إحداهما عن الأخرى، ولا بد فيها من اعتراف العبد بكمال عبودية النبي ﷺ لربه وكمال رسالته المتضمنة لكماله ﷺ، وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كمال.

ولا تتم الشهادة حتى يصدقه العبد في كل ما أخبر، ويطيعه في كل ما أمر وينتهي عما نهى عنه.

وبهذه الأمور تتحقق الشهادة لله بالتوحيد، وللرسول بالرسالة.

❁❁❁

[٤] أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا اعْتِقَادُ الفِرْقَةِ النَّاجِيةِ المَنْصُورَةِ إِلَى قِيامِ السَّاعَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَهُو: الإِيمَانُ بِالله، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّهِ.

❁ الشَّرْح ❁

يقول المصنف رحمه الله: إن ما احتوت عليه هذه الرسالة هو العقيدة المُنْجِيةُ من الهلاك والشرور، المحصِّلة لخير الدنيا والآخرة الموروثة عن محمد ﷺ، المأخوذة عن كتاب الله وسنة رسوله، وهي التي عليها الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، الذين ضمن الله لهم على لسان رسوله النصر إلى قيام الساعة.

والنصر إنما حصل لهم ببركة هذه العقيدة والعمل بها وتحقيقها بالقيام بجميع أمور الدين.

وأصلها الذي تُبنى عليه: هو الإيمان بهذه الأصول الستة التي صرَّح بها الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جملة وتفصيلًا وتأصيلًا وتفريعًا، وهي المذكورة في حديث

جبريل المشهور[1] حين سأل جبريل النبي ﷺ: ما الإيمان؟ فأجابه بها.

فهذه الرسالة من أولها إلى آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة.

❀❀❀

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

❁ فصل ❁

في الأصل الأول

وهو أصل الأصول كلها وأعظمها وأهمهما

وعليه تنبني جميع الأصول والعقائد وهو: الإيمان بالله.

[٥] وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فَلَا ينفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفُوَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإِنَّه سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بنفسِهِ وَبغيرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلقِهِ.

ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُون مَصْدُوقُون، بِخِلافِ الذِينَ يَقُولُون عَلَيهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ؛ وَلِهَذا قَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠ ـ ١٨٢] فَسَبَّح نَفْسَهُ عَمَّا وَصفَهُ بِهِ المُخَالِفُون للرُّسُلِ، وَسَلَّم عَلَى المُرسلِينَ لِسلامَةِ مَا قَالُوه مِنَ النَّقْصِ وَالعَيبِ.

❁ الشَّرح ❁

ذكر المصنف رحمه الله هذا الأصل والضابط العظيم في الإيمان بالله إجمالًا قبل أن يشرع في التفصيل؛ ليبنى العبد على هذا الأصل جميع ما يرد عليه من الكتاب والسنة، لِيستقيم له إيمانه ويسلمَ من الانحراف. فذكر أنه يجب ويتعين الإيمان بكل ما أخبر الله به في كتابه وأخبر به الرسول ﷺ عَنْ ربه إيمانًا صحيحًا سالمًا من التحريف والتعطيل، وسالمًا من التكييف والتمثيل، بل يثبت ما أثبته الله ورسوله ولا يزيد على ذلك ولا ينقص، فإن الكلام على ذات الباري وصفاته بابه واحد؛ فكما أن لله ذاتا لا

تشبه الذوات، فله تعالى صفات لا تشبهها الصفات.

فمن مال إلى نفي الصفات أو بعضها فهو نافٍ معطل محرف، ومن كيّفها أو مثّلها بصفات الخلق فهو ممثل مشبه.

والفرق بين التحريف والتعطيل:أن التعطيل نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة.

والتحريف: تفسير للنصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها بوجه من الوجوه.

والتحريف والتعطيل قد يكونان متلازمين إذا أثبت المعنى الباطل ونُفِيَ المعنى الحق، وقد يوجد التعطيل بلا تحريف كحال النافين للصفات، الذين ينفون الصفات الواردة في الكتاب والسنة ويقولون: ظاهرها غير مراد.

ولكنهم لا يعنون معنى آخر، ويُسَمُّون أنفسهم «مفوضة»، ويظنون أن هذا مذهب السلف، وهو غلط فاحش.

فإن السلف يثبتون الصفات. وإنما يفوضون علم كيفيتها إلى الله فيقولون: الوصف المذكور معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، وإثباته واجب، والسؤال عن كيفيته بدعة، كما قال الإمام مالك وغيره في الاستواء وغيره.

وأما قوله: (**من غير تكييف ولا تمثيل**) فالفرق بينهما:

أن التكييف: أن تُكَيِّف صفات الله وأن يُبْحَث عن كنهها.

والتمثيل: أن يقال فيها أنه مثل صفات المخلوقين.

- فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] - نفي الكُفُو والنِّد والسَّمِي - ينفي ذلك التكييف والتمثيل.

- وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ونحوها من إثبات أسماء الله وصفاته تنفي التعطيل والتحريف.

فالمؤمن الموحّد يثبت الصفات كلها على الوجه اللائق بعظمة الله وكبريائه.

والمعطل ينفيها أو ينفي بعضها، والمشبه الممثل يثبتها على وجه يليق بالمخلوق.

ونصوص الكتاب والسنة التي يتعذر إحصاؤها كلها تشترك في دلالتها على هذا الأصل وهو: إثبات الصفات على وجه الكمال الذي لا يشبهه كمال أحد، وهي في غاية الوضوح والبيان وأعلى مراتب الصدق.

فإن الكلام إنما يقصر بيانه ودلالته لأمور ثلاثة:

١ ـ إما جهل المتكلم وعدم علمه وقصوره.

٢ ـ وإما عدم فصاحته وبيانه.

٣ ـ وإما كذبه وغشه.

أما نصوص الكتاب والسنة فإنها بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه، فكلام الله ورسوله في غاية الوضوح والبيان وفي غاية الصدق، كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

والرسول ﷺ في غاية النصح والشفقة العظيمة على الخلق، فمن كان أعلم الخلق وأصدق الخلق وأفصح الخلق، وأنصح الخلق للخلق هل يمكن أن يكون في كلامه شيء من النقص أو القصور؟ أم تقول – والحق تقول – إن كلامه هو النهاية التي لا فوقها غاية في الوضوح والبيان للحقائق كلها.

وهذا برهان على أن كلام الله وكلام رسوله يوصل إلى أعلى درجات العلم واليقين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فالحق النافع هو ما اشتمل عليه كلام الله وكلام رسوله في جميع الأبواب، لا سيما في هذا الباب الذي هو أصل الأصول كلها.

وهذا معنى قول المصنف في إيراده للآية الكريمة: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٧٩ـ ١٨١]، فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

أي قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، لدلالة الحمد على الكمال المطلق من جميع الوجوه.

❊❊❊

[٦] وَهُو سُبحانهُ قَدْ جَمعَ فيمَا وَصفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْي والإثْباتِ، فَلا عُدُولَ لأهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَة عمَّا جَاءَتْ بِهِ المُرسَلُون، فإنَّهُ الصِّراطُ المُستقِيمُ، صِراطُ الذِين أنْعَم اللهُ عليهِم مِنَ النَّبيينَ وَالصِّديقِينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحِينَ.

❁ الشَّرح ❁

هذا الذي ذكر المصنف ضابط نافع في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأنه مبني على أصلين:

أحدهما: النفي. وثانيهما: الإثبات.

أما النفي: فإنه ينفي عن الله: ما يضاد الكمال، من أنواع العيوب والنقائص.

وينفي عنه أيضًا: أن يكون له شريك أو نديد أو مثيل في شيء من صفاته أو في حق من حقوقه الخاصة.

فكل ما نافى صفات الكمال فإن الله منزه عنه مقدس.

والنفي مقصود لغيره، القصد منه: الإثبات؛ ولهذا لم يرد نفي شيء في الكتاب والسنة عن الله إلا لقصد إثبات ضده.

فنفي الشريك والنديد عن الله؛ لكمال عظمته وتفرده بالكمال؛ ونفي السِّنة والنوم والموت؛ لكمال حياته. ونفي عزوب شيء عن علمه وقدرته وحكمته؛ كل ذلك لإثبات سعة علمه وشمول حكمته وكمال قدرته.

ولهذا كان التنزيه والنفي لأمور مجملة عامة.

وأما الإثبات: فإنه يجمع الأمرين:

إثبات المجملات: كالحمد المطلق، والكمال المطلق، والمجد المطلق، ونحوها.

وإثبات المفصَّلات: كتفصيل علم الله، وقدرته، وحكمته، ورحمته، ونحو ذلك من صفاته.

فأهل السنة والجماعة لزموا هذا الطريق الذي هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبلزومهم لهذا الطريق النافع تمت لهم النعمة، وصحت عقائدهم، وكملت أخلاقهم.

أما من سلك غير هذا السبيل، فإنه منحرف في عقيدته وأخلاقه وآدابه.

فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء، والصالحين.

❁❁❁

[٧] وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورةِ الإِخْلَاصِ التِي تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ، حيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

❁ الشرح ❁

هذا شروع في تفصيل النصوص الواردة في الكتاب والسنة الداخلة في الإيمان بالله، وأنه يجب فيها إثباتها ونفي التعطيل والتحريف والتكييف والتمثيل عنها، فثبت عنه ﷺ في الصحيح أن هذه السورة «تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»(١)، وذلك كما قال أهل العلم: إن القرآن يحتوي على علوم عظيمة كثيرة جدًا وهي ترجع إلى ثلاثة علوم:

أحدها: علوم الأحكام والشرائع - الداخل فيها علوم الفقه - كلها عباداته ومعاملاته وتوابعهما.

الثاني: علوم الجزاء على الأعمال، والأسباب التي يجازى فيها العاملون على ما يستحقون من خير وشر، وبيان تفصيل الثواب والعقاب.

الثالث: علوم التوحيد، وما يجب على العباد من معرفته والإيمان به، وهو أشرف العلوم الثلاثة.

وسورة الإخلاص كفيلة باشتمالها على أصول هذا العلم وقواعده، فإن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الله متفرد بالعظمة والكمال، ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء، يحقق ذلك قوله:

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله، فهو العظيم الكامل في عظمته، العليم الكامل في علمه، الحكيم الكامل في حكمه، الحليم الكامل في حلمه، فهو الكامل في جميع نعوته.

ومن معاني الصمد أنه الذي تصمد إليه الخليقة كلها وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها، فهو المقصود، وهو الكامل المعبود.

فإثبات الأحدية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن إثبات تفاصيل جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى.

---

(١) رواه البخاري (٥٠١٣) ومسلم (٨١١).

فهذا أحد نوعي التوحيد، وهو الإثبات وهو أعظم النوعين.

وُالنوع الثاني: التنزيه لله عن الولادة والند والكفو والمثل.

هذا داخل في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، أي: ليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير.

فمتى اجتمع للعبد هذه المقامات المذكورة في هذه السورة، بأن نزه الله وقدسه عن كل نقص وند وكفو ومثيل، وشهد بقلبه انفراد الرب بالوحدانية والعظمة والكبرياء وجميع صفات الكمال التي ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين وهما الأحد، الصمد، ثم صمد إلى ربه وقصده في عبوديته وحاجته الباطنة والظاهرة، متى كان كذلك- تم له التوحيد العلمي الاعتقادي والتوحيد العملي، فحق لسورة تشتمل على هذه المعارف أن تعدل ثلث القرآن.

❁❁❁

[٨] وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ مِن كتابه، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ -أي لا يُكرثه ولا يثقله - ﴿حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُه شَيْطَانُ حَتَّى يُصْبِحَ.

وَقَوْلُه سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

❁ الشَّرح ❁

وذلك لاشتمالها أي أية الكرسي على أجل المعارف وأوسع الصفات.

فأخبر أنه المتوحد في الألوهية، المستحق لإخلاص العبودية.

وأنه ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الكامل، كامل الحياة، وذلك يقتضي كمال عزته وقدرته، وسعة علمه، وشمول حكمته، وعموم رحمته، وغيرها من صفات الكمال الذاتية، وأنه ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾

الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع المخلوقات وقام بالموجودات كلها، فخلقها وأحكمها ورزقها ودبرها وأمدها بكل ما تحتاج إليه، وهذا الاسم يتضمن جميع الصفات الفعلية، ولهذا ورد أن ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سُئل به أعطى؛ بدلالة ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ على الصفات الذاتية، و﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ على الصفات الفعلية، والصفات كلها ترجع إليهما.

ومن كمال قيوميته وحياته: أنه ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾ - وهي النُّعاس- ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾، ثم ذكر عموم مُلكه للعالم العُلوي والسفلي، ومن تمام ملكه أن الشفاعة كلها له، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ففيها ذكر الشفاعة التي يجب إثباتها وهي التي تقع بإذنه لمن ارتضى.

والشفاعة المنفية التي يعتقدها المشركون وهي ما كانت تُطْلَبُ من غير الله وبغير إذنه، فمن كمال عظمة الله أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، وبين أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

ثم ذكر سعة علمه فقال: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، أي: علمه محيط بالأمور الماضية والمستقبلة، فلا يخفى عليه منها شيء، وأما الخلق فلا يحيطون بشيء من علم الله، لا قليل ولا كثير، إلا بما شاء أن يعلمهم الله على ألسنة رسله وبطرق وأسباب متنوعة.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ﴾ قيل: إنه العرش، وقيل: إنه غيره، وإنه كرسي ملكه بلغ من عظمته وسعته أنه وسع السماوات والأرض.

ومع ذلك فلا ﴿يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظهما؛ أي: حفظ العالم العلوي والسفلي - وذلك لكمال قدرته وقوته.

وفيها: بيان لعظيم نعمة الله على الخلق، إذ خلق لهم السماوات والأرض وما فيهما، وحفظهما وأمسكهما عن الزوال والتزلزل، وجعلهما على نظام بديع جامع للأحكام والمنافع المتعددة التي لا تُحصى.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه:

علو الذات: بكونه فوق جميع المخلوقات على العرش استوى.

وعلو القدر: إذ إن له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها.

﴿الْعَظِيمُ﴾: الذي له جميع أوصاف العظمة والكبرياء، وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه الذي لا أعظم منه ولا أجل ولا أكبر.

فحقيق بآية تحتوي على هذه المعاني الجميلة أن تكون أعظم آيات القرآن(١)، وأن يكون لها من المنع وحفظ قارئها من الشرور والشياطين ما ليس لغيرها.

❁❁❁

[٩] وَقَولُهُ سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

❁ الشَّرح ❁

وَقَولُهُ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

قد فسر النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة بتفسير مختصر جامع واضح حيث قال: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فوقَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيءٌ**».

وهذا يدل على كمال عظمته وأنه لا نهاية لها، وبيان إحاطته من كل وجه. فالأول والآخر إحاطته الزمانية، والظاهر والباطن إحاطته المكانية.

ثم صرح بإحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلية، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

❁❁❁

[١٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ:١، ٢].

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصّلت:٤٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

---

(١) رواه مسلم (٨١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧].

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء:٩٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد:٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزُّخرُف:٥٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة:٢١٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٠، ٢١].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٣،١٤].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف:٨٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤].

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠].

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤].

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥، ١٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون:٨].

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:٤].

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:١١١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:١].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:١،٢].

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١، ٩٢].

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٧٤].

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥].

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ في ستة مواضع:

١ ـ في سورة الأعراف قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤].

٢ ـ وقال في سورة يونس عليه السلام: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يونس:٣].

٣ ـ وقال في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

[الرعد:٢].

٤ ـ وقال في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

٥ ـ وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩].

٦ ـ وقال في سورة آلم السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤].

٧ ـ وقال في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥].

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦ - ٣٧].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٦ - ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١١٦].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤].

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣].

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠].

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:١٥].

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:٢٧].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل:٧٦].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:١٥٥].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠١ - ١٠٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣].

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

وهذا الباب في كتاب الله تعالى كثير، من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق.

❁ الشَّرح ❁

أقول: ذكر المصنف رحمه الله في هذا الموضع عدة آيات، وكلها داخلة في الإيمان بالله، ويتضح معناها عمومًا وخصوصًا بذكر أصول وضوابط نوضحها فيما يأتي.

• منها: أن هذه النصوص القرآنية تنطبق عليها القاعدة المتفق عليها بين السلف؛ وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات، وما نشأ عنها من الأفعال.

مثال ذلك: «القدرة»، يجب علينا الإيمان بأنه على كل شيء قدير، والإيمان بكمال قدرة الله، والإيمان بأن قدرته شاملة نشأت عنها جميع الكائنات، وبأنه عليم ذو علم محيط، وأنه يعلم الأشياء كلها. وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط.

فما في هذه الآيات التي ذكرها المصنف من الأسماء الحسنى فإنها داخلة في الإيمان بالأسماء، وما فيها من ذكر الصفات مثل: عزة الله، وقدرته، وعلمه، وحكمته، وإرادته، ومشيئته، وكلامه، وأمره، وقوله، ونحوها، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات.

وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة، مثل: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠] ويعلم كذا وكذا، ويحكم ويريد، وسمع ويسمع ويرى، وأسمع وأرى، وقال ويقول، وكلم ويكلم، ونادى وناجى، ونحوها من الأفعال؛ فإنه داخل في الإيمان بأفعاله تعالى.

فعلى العبد الإيمان بكل ذلك إجمالًا وتفصيلًا وإطلاقًا وتقييدًا على الوجه اللائق

بجلال الله وعظمته، وأن يعلم أن صفاته لا تشبهها صفات المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين.

• **ومن الأصول المتفق عليها بين السلف التي دلت عليها هذه النصوص أن صفات الباري قسمان:**

صفات ذاتية: لا تنفك عنها الذات كصفة: «الحياة»، و«العلم»، و«القدرة»، و«القوة»، و«العزة»، و«الملك»، و«العظمة»، و«الكبرياء» ونحوها، و«العلو المطلق».

وصفات فعلية: تتعلق بها أفعاله كل وقت وآن وزمان ولها آثارها في الخلق والأمر، فيؤمنون بأنه فعال لما يريد، وأنه لم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأن أفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته، كما أن شرائعه وأوامره ونواهيه الشرعية لا تزال تقع شيئًا فشيئًا.

وقد دل على هذا الأصل الكبير ما في هذه النصوص من ذكر قال ويقول، وسمع ويسمع، وكلم، ويكلم، ونادى، وناجى، وعلم، وكتب، ويكتب، وجاء، ويجيء، وأتى، ويأتي، وأوحى، ويوحي، ونحوها من الأفعال المتنوعة التي تقع مقيدة بأوقاتها، كما سمعت في هذه النصوص المذكورة آنفًا. وهذا من أكبر الأصول وأعظمها. ولقد صنف فيه المؤلف مصنفًا مستقلًا وهو المسمى بـ«**الأفعال الاختيارية**».

فعلى المؤمن: الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه:

من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش، والمجيء، والإتيان، والنزول إلى السماء الدنيا، والقول، ونحوها.

والمتعلقة بخلقه كالخلق، والرزق، وأنواع التدبير.

• **ومن الأصول الثابتة في الكتاب والسنة المتفق عليها بين السلف: التفريق بين مشيئة الله وإرادته، وبين محبته.**

فمشيئة الله وإرادته الكونية تتعلق بكل موجود محبوب لله وغير محبوب، كما ذُكر في هذه الآيات أن الله يفعل ما يريد وما يشاء، وإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

وأما محبته: فإنها تتعلق بما يحبه خاصة من الأشخاص والأعمال، كما ذكر في هذه الآيات تقييدها بأنه يحب الصابرين والمتقين والمؤمنين والمحسنين والمقسطين ونحوها.

فمشيئته عامة للكائنات، ومحبته خاصة ومتعلقة بالمحبوبات.

ويتفرع عن هذا أصل آخر وهو: التفريق بين الإرادة الكونية؛ فإنها تطابق المشيئة، وبين الإرادة الدينية، فإنها تطابق المحبة.

فالأول مثل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج:١٤]، ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦] ونحوها.

والثاني نحو: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧].

ومع ذلك فجميع ذلك خاصُّه وعامُّه يثبته أهل السنة والجماعة على الوجه الذي قاله الله وقاله رسوله.

• ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة: إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه.

وهي من أهم الأصول التي باين بها أهل السُّنَّة الجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

فما في هذه الآيات من ذكر عُلوه واسمه العلي الأعلى، وصُعُود الأشياء إليه وعُرُوجها ونُزُولها منه يَدُلُّ على العلو.

وما صرح به من استوائه على العرش برهان قاطع على ثبوت ذلك.

وقد قيل للإمام مالك: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه – أي عن الكيفية – بِدعة».

وفي هذه الآيات: ذكر مَعية الله العامة، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، وهذه المعية تَدُلُّ على إحاطة عِلْمِه بالعِباد، ومُجازاته لهم بأعمالهم.

وفيها: ذكر المعيَّة الخاصة كقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، وهذه الآيات تدل – مع العلم المحيط – على العناية بمن تعلقت به تلك المعية وأن الله معهم بعونه وحفظه وكلاءته وتوفيقه.

وإذا أردت أن تعرف هل المراد المعية العامة أو الخاصة؟ فانظر إلى سياق الآيات:

فإن كان المقام مقام تخويف ومُحاسبة للعباد على أعمالهم وحث على مراقبة الله فإن المعية عامة، مثل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾[المجادلة:٧].

وإن كان المقام مقام لُطف وعناية من الله بأنبيائه وأصفيائه – وقد رُتبت المعية على الاتصاف بالأوصاف الحميدة – فإن المعية معية خاصة وهو أغلب إطلاقاتها في القرآن، مثل: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴿٤٠﴾﴾ ونحوها.

• **ومن الأصول العظيمة:** إثبات تفرد الرب بكل صفة كمال وأنه ليس لله شريك ولا مثيل في شيءٍ منها.

والنصوص المذكورة التي فيها نفي: الند، والمثل والكفو والسَّمِيَّ عن الله؛ تدلُّ على ذلك، وتدلُّ على أنه مُنزه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ وآفةٍ.

• **ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم دار القرار والتنعم برؤيته وقربه ورضاه.**

ويدل على ذلك من الآيات التي ذكرها المصنف قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢] أي: جميلة ناعمة حسنة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٣] وهذا صريح في نظرهم إلى ربهم.

وكذلك قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطففين:٢٣] أي: إلى ما أعطاهم من النعيم الذي أجله وأعظمه النظر إلى ربهم.

وكذلك قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: وفوا مقام الإحسان لهم﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي هي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] وهي النظر إلى وجه الله الكريم.

وكذلك قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:٣٥].

❀❀❀

❁ فصل ❁

اعلم أن أهل السنة والجماعة وهم الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وأهل القرون المفضلة، متفقون على:

إثبات جميع ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الله، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، ونحوها، ولا بين الفعلية كالرِّضى، والغضب، والمحبة، والكراهية.

وكذلك: لا فرق بين إثبات الوجه، واليدين، ونحوها، وبين الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة، وغيرها. فكلها يثبتونها من غير نفي لشيء منها ولا تأويل ولا تحريف ولا تمثيل، وهذا هو الحق، وهو الصراط المستقيم، وهو الطريق المنجِّي من عذاب الله، والهدى والنور وخالفهم في هذا الأصل طائفتان من أهل البدع:

إحداهما: الجهمية والمعتزلة على اختلاف طوائفهم، فإنهم نفوا جميع الصفات، ولم يثبتوا إلا الأسماء والأحكام.

والآيات السابقة كلها تنقض قولهم وتبطله، وكذلك كلامهم هذا ينقض بعضه بعضًا، فإن إثبات الأسماء والأحكام بلا أوصاف تقوم بالله محال عقلًا، كما أنه باطل سمعًا.

الطائفة الثانية: الأشعرية ومن تبعهم، وهم أخف حالًا وأهون من المعتزلة؛ لأنهم وافقوا أهل السنة في شيء، ووافقوا المعتزلة في شيء.

وافقوا أهل السنة في إثبات الصفات السبع وهي: «الحياة» و«الكلام» و«العلم» و«السمع» و«البصر» و«الإرادة» و«القدرة».

ووافقوا المعتزلة في بقية الصفات.

والجميع محجوبون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة القرون المفضلة على الإثبات العام.

وأما النفي للصفات كلها أو التناقض فإنه مخالف للكتاب والسنة، ومناف للعقل الصحيح.

فلا يثبت للعبد إيمان إلا بالإيمان المحض، والتسليم لما جاء به الرسول بلا شرط ولا قيدٍ، والدوران مع النصوص الشرعية إثباتًا ونفيًا.

❊❊❊

❁ فصل ❁

فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

[١١] فالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ القُرآنَ وَتُبينُهُ وَتَدُلُّ عَليهِ وَتُعَبِّرُ عَنهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بهِ رَبَّه عز وجل من الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ التِي تلَقَّاهَا أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِالقَبُولِ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

❁ الشَّرح ❁

أي: إيمانًا خاليًا من التعطيل والتحريف ومن التكييف والتمثيل، بل إثبات لها على الوجه اللائق بعظمة الرب.

وحكم السنة حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل، فإن السنة توضيح القرآن وبيان مجملِهِ وتقييد لمُطلقِهِ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣] أي السنة.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وذلك مِثْلَ قَولِهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كل ليلة ...»

❁❁❁

[١٢] مِثْلَ قَولِهِ ﷺ: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرِ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» متفق عليه.

❁ الشَّرح ❁

فهذا الحديث قد استفاض في الصحاح والسنن والمسانيد، واتفق على تلقيه بالقبول والتصديق أهلُ السنة والجماعة، بل جميع المسلمين الذين لم تغيرهم البدع، وعرفوا به عظيم رحمة ربهم، وسعة جوده، واعتنائه بعباده، وتعرضه لحوائجهم الدينية والدنيوية، وأن نزوله حقيقة كيف يشاء.

فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي تثبت في الكتاب والسنة، ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون.

ويقولون: إن الرسول أخبرنا أنه ينزل، ولم يخبرنا كيف ينزل، وقد علمنا أنه فعال لما يريد، وعلى كل شيء قدير.

ولهذا كان خواص المؤمنين يتعرضون في هذا الوقت الجليل لألطاف ربهم ومواهبه، فيقومون بعبوديته خاضعين خاشعين داعين متضرعين، يرجون منه حصول مطالبهم التي وعدهم إياها على لسان رسوله ﷺ.

ويعلمون أن وعده حق، ويخشون أن ترد أدعيتهم بذنوبهم ومعاصيهم، فيجمعون بين الخوف والرجاء، ويعترفون بكمال نعمة الله عليهم، فتمتلئ قلوبهم من التعظيم والإيمان من التصديق والإذعان.

❊❊❊

[١٣] وقوله ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُم بِرَاحِلَتِهِ**» **الحديث. متفق عليه.**

❊ الشَّرْح ❊

وهذا فرح جود وإحسان؛ لأنه جل جلاله ينوع جوده وكرمه على عباده في جميع الوجوه، ويحب من عباده أن يسلكوا كل طريق يوصلهم إلى رحمته وإحسانه، ويكره لهم ضد ذلك، فإنه تعالى جعل لرحمته وكرمه أسبابًا وبيّنَهَا لعباده وحثهم على سلوكها، وأعانهم عليها، ونهاهم عما ينافيها ويمنعها.

فإذا عصوه وبارزوه بالذنوب فقد تعرَّضوا لعقوباته التي لا يحب منهم أن يتعرضوا لها، فإذا رجعوا إلى التوبة والإنابة فرح بذلك أعظم فرح يقدر، فإنه ليس في الدنيا نظير فرح هذا الذي في أرض فَلاة مهلكة، وقد انفلتت منه راحلته التي عليها مادة حياته من طعام وشراب وركوب، فأيس منها، وجلس ينتظر الموت، فإذا هو بها واقفة على رأسه، فأخذ بخطامها وكاد الفرح أن يقضي عليه، وقال من الدهشة وشدة الفرح: «**اللَّهُمَّ أَنتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**»[١].

فهل يوجد فرح أعظم من فرح الآيس من حياته إذا حصلت له على أكمل الوجوه؟

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

فتبارك الرب الكريم الجواد الذي لا يحصى العباد ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وهذا الفرح تبع لغيره من الصفات، كما تقدم أن الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات.

فهذا فرح لا يُشبه فرح أحد من خلقه لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته، فسببه الرحمة واللاحسان، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين.

❁❁❁

[١٤] وَقَوْلُه ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ». متفق عليه(١).

❁ الشَّرح ❁

وهذا أيضًا من كماله وكمال إحسانه وسعة رحمته.

فإن المسلم يقاتل في سبيل الله ويقتله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يمن الله على ذلك الكافر والقاتل فيهديه للإسلام، فيدخلان الجنة جميعا، وهذا من تفريع جوده المتتابع على عباده من كل وجه، والضحك يكون من الأمور العجيبة التي تخرج عن نظائرها، وهذه الحالة المذكورة كذلك.

فإن تسليط الكافر على قتل المسلم في بادئ الأمر أمر غير محبوب، ثم هذا المتجرئ على القتل يتبادر لأذهان كثير من الناس أنه يبقى على ضلاله ويعاقب في الدنيا والآخرة، ولكن رحمة الله وإحسانه فوق ذلك كله، وفوق ما يظن الظانون ويتوهم المتوهمون.

وكذلك لما دعا النبي ﷺ على أُناس من رؤساء المشركين لعنادهم وأذيتهم بالطرد عن رحمة الله أنزل الله قوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران:١٢٨] الآية.

فتاب عليهم بعد ذلك وحسن إسلام كثير منهم.

❁❁❁

(١) رواه البخاري (٢٨٢٦) ومسلم (١٨٩٠).

[١٥] وَقَوْلُهُ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُم أَزِلِينَ قَنِطِينَ فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُم قَرِيبٌ» حديث حسن[١].

❁ الشَّرح ❁

وهذا العجب الذي وصف الرسول ﷺ به ربَّه من آثار رحمة الله، وهو من كماله تعالى، والله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته. فإذا تأخر الغيث عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم، استولى عليهم اليأس والقنوط، وصار نظرهم قاصرًا على الأسباب الظاهرة، وحسبوا أن لا يكون وراءها فرج من القريب المجيب، فيعجب الله منهم، وهذا محل عجب! كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء؟! والأسباب لحصولها قد توفرت، فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته والدعاء لحصول الغيث، والرجاء لله من الأسباب، ووقوع الغيث بعد امتناعه مدة طويلة وحصول الضرورة يوجب أن يكون لفضل الله وإحسانه موقع كبير وأثر عجيب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم:٤٩] الآيات.

والله تعالى قدر من ألطافه وعوائده الجميلة أن الفرج مع الكرب، وأن اليسر مع العسر، وأن الضرورة لا تدوم، فإن حصل مع ذلك قوة التجاء وشدة طمع بفضل الله ورجاء وتضرع كثير ودعاء فتح الله عليهم من خزائن جوده ما لا يخطر بالبال.

وفي لفظ: «**وقرب غيره**» أي: تغييره الشدة بالرخاء.

❁❁❁

[١٦] وَقَولُهُ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ»[٢].

وفي رواية: «عَلَيْهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطٍ قَطٍ». متفق عليه[٣].

---

(١) ضعيف ابن ماجه (١٧).

(٢) رواه أبو عوانة في مسنده (٣٤٧).

(٣) رواه البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨).

❁ الشَّرْح ❁

وهذه الصفة تجري مجرى بقية الصفات تُثبت لله حقًا على الوجه اللائق بعظمة الله، وذلك أن الله وعد النار ملأها، كما قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

فلما كان من مقتضى رحمته أن لا يعذب أحدًا بغير جُرم، وكانت النار في غاية القعر والسعة، حقق وعده تعالى ووضع عليها قدمه، فتلاقى طرفاها ولم يبق فيها فضل عن أهلها.

وأما الجنة فإنه يبقى فيها فضل عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وسعته فينشئ لها خلقًا آخر كما ثبت بذلك الحديث.

❁❁❁

[١٧] وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَقُولُ الله تَعَالَى: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوتٍ: "إِنَّ الله يأمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِيَتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ». متفق عليه(١).

❁ الشَّرْح ❁

ففي هذا الحديث إثبات القول من الله والنداء لآدم وأنه نداء حقيقة بصوت، وهذا من فضل الله لا يشكل على المؤمنين، فإن النداء والقول من أنواع الكلام، وكلام الله صفة من صفاته، والصفة تتبع الموصوف.

وفيه أن القول والنداء يكون في يوم القيامة، وهذا من أدلة الأفعال الاختيارية، وكم لهذه المسألة من براهين من الكتاب والسنة.

❁❁❁

[١٨] وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»(٢).

❁ الشَّرْح ❁

وهذا أيضًا فيه: إثبات لتكليمه لجميع العباد بلا واسطة.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٤١) ومسلم (٢٢٢).

(٢) رواه البخاري (٧٤٤٣) ومسلم (١٠١٦).

وتكليمه لعباده نوعان:

❁ نوع بلا واسطة: كما في هذا الحديث، وتكليمه لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان وأما ما في الحديث فإنه تكليم محاسبة، يكون مع البر والفاجر.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ، فالمنفي كلام خاص، وهو الكلام الذي يسر المتكلم.

ونوع بواسطة: وهو: كلامه تعالى لرسله من الملائكة بأمره ونواهيه وإخباره لأنبيائه ورسله من البشر.

❁❁❁

[١٩] وَقَوْلُهُ ﷺ في رُقيةِ المريض: «رَبُّنَا الله الذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حوْبَنَا وَخطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيبِينَ، أَنْزِلَ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ، فَيَبرَأَ» . حديث حسن رواه أبو داود [(١)].

وقوله: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» حديث صحيح[(٢)]، وقوله: «وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَالله فَوْقَ العَرْشِ، وَهُو يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ» حديث حسن رواه أبو داود وغيره[(٣)].

وقوله ﷺ للجارية: «أَيْنَ الله؟» قالت: في السماء قال: «مَنْ أَنَا» قالت: أنت رسول الله، قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنةٌ». رواه مسلم[(٤)].

❁ الشَّرْح ❁

فهذه النصوص وغيرها المصرحة بأنه تعالى في السماء إما أن "في" بمعنى: (على) كما قاله كثير من أهل العلم واللغة، و(في) تكون بمعنى على في مواضع كثيرة مثل

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٣) وضعفه الشيخ الألباني.

(٢) رواه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

(٣) ذكره البخاري في خلق أفعال العباد (١٤).

(٤) رواه مسلم (٥٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١] أي: عليها، وقال طائفة من أهل العلم إن معنى «في السماء» أي: في جهة العلو.

وعلى الوجهين: فهي نص في علو الله على خلقه.

وفي حديث الرقية المذكور توسل إلى الله بالثناء عليه بربوبيته وألوهيته وتقدسيه وعلوه وعموم أمره الشرعي وأمره القدري.

فإن الله له الأمر القدري الذي ينشأ عنه جميع الموجودات والحوادث والتدابير القدرية، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

وله الأمر الشرعي المتضمن الشرائع التي شرعها لعباده على رسله. فتوسل إلى الله بذلك ثم توسل إليه برحمته التي شملت أهل السماوات كلهم أن يجعل لأهل الأرض نصيبًا وافرًا منها، ثم توسل إليه بسؤال مغفرة الحوب وهو الذنب العظيم والخطايا وما دونها، ثم بربوبيته الخاصة للطيبين ـ وهم الأنبياء وأتباعهم التي من آثار ربوبيته إياه أن غمرهم بنعم الدين والدنيا الظاهرة والباطنة.

فهذه الوسائل المتنوعة لا يكاد يرد دعاء من توسل بها؛ فلهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذي هو شفاء الله الذي لا يدع مرضا إلا أزاله، ولا فيه تعلق بغير الله فأفضل المنن منن المولى التي لا سعي لمخلوق فيها.

وفي شهادة الرسول ﷺ بالإيمان للجارية التي اعترفت بعلوِّ الله ورسالة رسوله: أن من أعظم أوصاف الباري الاعتراف بعلوه على خلقه ومباينته لهم، وأنه على العرش استوى، وأن هذا أصل الإيمان، وأن من أنكر علو الله المطلق من كل وجه فقد حرم هذا الإيمان.

وقوله: « وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَالله فَوْقَ العَرْشِ، وَهُو يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ» فيه: الجمع بين الإيمان بعلوه على عرشه وفوق مخلوقاته، وبإحاطة علمه بالموجودات كلها، وقد جمع الله بين الأمرين في عدة مواضع من كتابه.

❁❁❁

[٢٠] وقوله: «**أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**» حديث حسن[١].

وقوله: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُم إِلَى الصَّلاةِ، فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْه وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، ولَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ**». متفق عليه[٢].

❁ الشَّرْح ❁

هذان الحديثان دلّا على:

أن أفضل الإيمان: مقام الإحسان والمراقبة، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وتعلم أن الله معك، لا تتكلم ولا تفعل ولا تتصرف إلا والله يراك ويشاهدك ويعلم سرك وجهرك.

وأن تلزم الأدب مع الله، خصوصا إذا دخلت في الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وبين ربه، فتخضع وتخشع وتستحضر وتعلم أنك واقف بين يدي الله، فتقلل من الحركات، ولا تسيء الأدب معه بالبصاق أمامك أو عن يمينك.

فهذه المعية متى حصل للعبد استحضارها في كل أحواله لا سيما عباداته فإنها أعظم عون على المراقبة التي هي أعلى مراتب الإيمان، فيجمع العبد بين الإيمان بعلو الله واستحضار قربه، ولا منافاة بين الأمرين، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

❁❁❁

[٢١] وقوله: «**إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُم أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا**» متفق عليه[٣].

إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ التِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّه بِمَا يُخْبَرَ بِهِ.

❁ الشَّرْح ❁

وقد تواترت النصوص في رؤية الله لأهل الجنة، وأنهم يرون ربهم ويتمتعون بمشاهدته، وهي تدل على أمرين: على علوه على خلقه؛ لأنها صريحة في أنهم يرونه

---

(١) ضعيف الجامع (١٠٠٢).

(٢) رواه البخاري (٤٠٦) ومسلم (٥٤٧).

(٣) رواه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣).

من فوقهم.

على أن أعظم النعيم نعيم النظر إلى وجهه الكريم.

وحثه ﷺ في هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خصوصًا : فيه إشارة على أن من حافظ عليهما نال هذا النعيم الكامل الذي يضمحل عنده كل نعيم، وهذا يدل على تأكدهما.

كما دل على ذلك الحديث الآخر: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ العَصْرِ» . الحديث متفق عليه(١).

❁❁❁

[٢٢] فإنَّ الفِرْقَةَ النَّاجيةَ أَهْلَ السَّنَّةِ وَالجَماعَةِ يُؤْمِنُون بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ الله بِهِ فِي كِتَابِهِ العزيز مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْر تكييفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، بَلْ هُمْ الوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هي الوسط فِي جَمِيعِ الأُمَمِ.

❁ الشَّرح ❁

والمراد بالوسط العدل الخيار الذين جمعوا كل حق في أقوال الخلق، وردوا ما فيها من الباطل، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

فهذه الأمة وسط بين الأمم التي تميل إلى الغلو الضار والأمم التي تميل إلى التفريط المهلك.

فمن الأمم من غلا في المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق ومن حقوقه ما جعل، ومنهم من جفا الأنبياء وأتباعهم حتى قتلهم ورد دعوتهم، وهذه الأمة آمنت بكل رسول أرسله الله، واعتقدت رسالتهم، وعرفت مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم الله بها، ولم يغلوا في أحد من المخلوقين.

ومن الأمم من أحلت كل طيب وخبيث، ومنهم من حرم الطيبات غلوًا ومجاوزة. وهذه الأمة أحل الله لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).

ونحو ذلك من الأمور التي منَّ الله على هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها.

وكذلك أهل السنة والجماعة متوسطون بين فرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

❁❁❁

[٢٣] فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَينَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الجَهْمِيةِ وَأَهْلِ التَّمْثيلِ المُشَبِّهَةِ.

❁ الشرح ❁

كما تقدم بيان ذلك، وأن أهل السنة يثبتون جميع ما ثبت في النصوص من صفات الله على حقيقتها اللائقة بعظمة الباري.

❁❁❁

[٢٤] وَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَى بَيْنَ الجَبْرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ.

❁ الشرح ❁

فإن الجبرية يزعمون أن العبد مجبور على أفعاله لا قدرة له عليها، وأن أفعاله بمنزلة حركات الأشجار، كل هذا غلو منهم في إثبات القدر.

والقدرية قابلوهم فنفوا تعلق قدرة الله بأفعال العباد تنزيهًا لله بزعمهم. فأفعال العباد عندهم لا تدخل تحت مشيئة الله وإرادته.

وكل من هاتين الطائفتين ردت طائفة كبيرة من نصوص الكتاب والسنة. وهدى الله أهل السنة والجماعة للتوسط بين الطائفتين المنحرفتين، فآمنوا بقضاء الله وقدره، وشموله للأعيان والأوصاف والأفعال التي من جملتها أفعال المكلفين وغيرهم.

وآمنوا بأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالى جعل للعباد قدرة وإرادة تقع بها أقوالهم وأفعالهم على حسب اختيارهم وإرادتهم.

فآمنوا بكل نص فيه تعميم قدرته ومشيئته، لكل شيء وبكل نص فيه إثبات أن العباد يعملون ويفعلون كل الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقدرتهم، وعلموا أن الأمرين لا يتنافيان، بل تساعدان كما سيأتي توضيح ذلك إن شاء الله.

❁❁❁

[٢٥] وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ وَالوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِم.

❁ الشَّرح ❁

وذلك أن المرجئة جعلت الإيمان فقط تصديق القلب، وأخرجت عنه جميع الأعمال الباطنة والظاهرة، وجوزوا على الله أن يعذِّب المطيعين وأن ينعِّم العاصين.

وأما الوعيدية من القدرية فخلدوا في النار كلَّ من مات مصرًّا على الكبائر التي دون الشرك، فانحرفت كل واحدة وردَّت لأجل ذلك من النصوص ما ردت.

وهدى الله أهل السنة والجماعة، فتوسَّطوا، وقالوا: إن الإيمان اسم لجميع العقائد الدينية والأعمال القلبية والبدنية، وأنه قد يبقى ناقصًا إذا تجرأ المؤمن على المعاصي بدون توبة، وأن الله لا يظلم من عباده أحدًا، ولا يعذِّب الطائعين بغير جرم ولا ذنب، وأنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ولو فعل الكبائر، كما تواترت بذلك النصوص في الكتاب والسنة.

❁❁❁

[٢٦] وَفِي: أَسْمَاءِ بَابِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ بينَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ المُرْجِئَةِ وَالجَهْمِيَّةِ.

❁ الشَّرح ❁

وقد تقدم ذلك، لكن الفرق بين الحرورية والمعتزلة: أن الحرورية -وهم الخوارج- يطلقون الكفر على العصاة من المؤمنين ويخلدونهم في النار.

وأما المعتزلة فلا يطلقون عليهم الكفر، بل يقولون: لا مسلمون ولا كفار، ولكنهم يخلدونهم في النار، كالخوارج.

والنصوص تردُّ قولهم جميعًا.

❁❁❁

[٢٧] وَفِي: أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّوَافِضِ وَالخَوارِجِ.

❁ الشَّرح ❁

فإن الرافضة تسبهم وتلعنهم، وربما كفرتهم أو كفرت بعضهم، وأما الرافضة الغالية

فإنهم مع سبِّهم لطائفة من الصحابة وللخلفاء الثلاثة فإنهم يغلون في علي ويدعون فيه الألوهية، وهم الذين حرَّقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار.

وقابلهم الخوارج فقاتلوه وقاتلوا الصحابة وكفروهم واستحلوا دماء الصحابة والمسلمين.

وهدى الله أهل السنة والجماعة، فاعترفوا بفضل أصحاب نبيهم، وأنهم أعلى الأمة في كل خصلة كمال، ومع ذلك فلم يغلوا فيهم ولم يعتقدوا عصمتهم، بل قاموا بحقوقهم وأحبوهم؛ لما لهم من الحق الأكبر على جميع الأمة. كما سيأتي ذلك إن شاء الله .

❁❁❁

❁ فصل ❁

[٢٨] وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْناهُ مِنَ الإِيمَانِ بِالله: الإيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ الله بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَواتَرَ عَن رَسُولِهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأَمَّةِ، مِنْ أَنَّه سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُو سُبْحَانَهُ مَعَهُم أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَينَ ذَلك في قَولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وَلَيْسَ مَعْنَى قَولِهِ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ، فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُو خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَليهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فطَر الله عَلَيْهِ الخَلْقَ، بَلْ القَمَرُ آيَةٌ مِن آياتِ الله مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوع فِي السَّمَاءِ، وَهُو مَعَ المُسَافِرِ وَغَيْرِ المُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ العَرْشِ رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِم مُطَّلِعٌ إِلَيْهِم، إِلَى غيرِ ذَلِكَ مِن مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الكلام الذِي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ وَأَنَّه مَعَنَا حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الكَاذِبَةِ مِثْلَ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: "في السَّمَاءِ" أَنَّ السَّمَاءَ تُقِلُّهُ أَوْ تُظِلُّه، وَهَذا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ العِلْمِ والإيمَانِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُو الذِي يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

❁ الشَّرح ❁

صرح المصنف رحمه الله في هذا الفصل بمسألة علو الله واستوائه على عرشه، وأن ذلك داخل في الإيمان بالله، وذلك لما حصل في هذه المسألة من القلق والمخاصمات

الطويلة بين أهل السنة والجماعة وبين طوائف الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم في هذه المسألة من الأشعرية ونحوهم.

فإن مسألة العلو صنفت فيها المصنفات المستقلة، وأورد أهل السنة من نصوص الكتاب والسنة ما لا يمكن دفعه أو دفع بعضه، وحققوا ذلك أيضًا بالعقل الصحيح، وأن الفطر والعقول معترفة بل ومضطرة إلى الإيمان بعلو الله، إلا من غيرت فطرته العقائد الباطلة، وقد بين المصنف في هذا الموضوع الجمع بين الإيمان بعلو الله وإثبات معيته وعلمه المحيط، وحققه بكلام واضح، مبين بالأمثلة المقربة للمعاني بما لا مزيد عليه.

❀❀❀

❁ فصل ❁

[٢٩] وَقد دَخل في ذَلك: الإيمَانُ بِأنهُ قَريبٌ مِنْ خَلْقِهِ مُجيبٌ، كَمَا جَمَعَ بينَ ذَلِكَ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقوله ﷺ للصَّحَابَةِ لَمَّا رفعوا أصواتَهم بالذِّكْرِ: «أيُّهَا النَّاس ارْبَعُوا على أَنْفُسِكُم فَإنَّكُم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غَائِبًا، إنَّ الذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِنْ عُنقِ رَاحِلَتِهِ».

وَمَا ذُكِر فِي الكِتَابِ والسُّنَّة مِن قُربِهِ وَمَعيَّتِهِ لا يُنَافي مَا ذَكَر مِن عُلُوِّهِ وَفَوْقِيتِهِ، فإنَّه سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُو عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ قَريبٌ فِي عُلُوِّهِ.

❁ الشَّرح ❁

خص المصنف هذين الأمرين؛ وذلك لشدة الحاجة إلى الإيمان بقربه وإجابته ؛ليكون العبد مراقبًا لله إذا آمن بقربه إيمانا تامًا كثير اللهج بذكره ودعائه، منيبًا إليه على الدوام إذا آمن بإجابته للسائلين وإثابته للمطيعين.

ثم ذكر رحمه الله الجمع بين الإيمان بعلو الله وقربه ومعيته؛ لئلا يظن الظان أن ذلك مثل صفات المخلوقين.

وأنه إذا قيل إنه العلي فوق خلقه كيف يكون معهم وقريبًا منهم؟ فأجاب بما تضمنه هذا الأصل الثابت في الكتاب السنة وإجماع الأمة، وهو أن الله تعالى ليس كمثله **شيء في جميع نعوته.**

ومن نعوته اللازمة العلو المطلق والقرب العام والخاص، وأن القرب والعلو في حقه يجتمعان لعظمته وكبريائه وإحاطته من كل وجه، فهو العلي في دنوه، القريب في علوه.

وهذا الأصل ينفعك في كل ما ورد عليك من صفات الله الثابتة، فأثبتها ولا تتوقف، فإن الذي أثبتها هو الله الذي هو أعلم بنفسه، ورسوله الذي هو أعلم الخلق وأورعهم

وأنصحهم للخلق، فإن خطر ببالك تمثيل أو تشبيه فتفطن لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وتذكر أيضًا أن الكلام على الصفات مثل الكلام على الذات؛ فكما أنه لا نظير له ولا مثيل له في ذلك، فكذلك في صفاته.

❀❀❀

[٣٠] وَمِنَ الإيمانِ بالله وكُتُبِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ القُرآنَ كَلامُ الله، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلوقٍ.

مِنْهُ بَدَأ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ الله تَعالَى تَكَلَّمَ بِهِ حَقيقَةً.

وَأَنَّ هذا القُرآنَ الذي أَنْزَلَه عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ الله حَقيقَةً، لا كَلامُ غَيْرِهِ.

وَلا يَجوزُ إِطْلاقُ القَوْلِ بِأَنَّهُ حِكايَةٌ عَنْ كَلامِ الله أو عِبارَةٌ عَنْهُ بَلْ إذا قَرَأَهُ النّاسُ أَوْ كَتَبوهُ بِذَلِكَ في المَصاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلكَ عَنْ أن يَكُونَ كَلامَ الله تعالى حَقيقَةً؛ فإِنَّ الكَلامَ إِنَّما يُضافُ حَقيقَةً إلى مَنْ قالَهُ مُبْتَدِئًا، لا إلى مَنْ قالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

وَهُوَ كَلامُ الله حُرُوفُهُ وَمَعانِيهِ؛ لَيْسَ كَلَامُ الله الحُرُوف دُونَ المَعَانِي، وَلَا المَعَانِي دُونَ الحُروف.

❀ الشرح ❀

ووجه ذلك: أنه داخل في الإيمان بالله وبكتبه الإيمان بكلام الله على هذا الوصف الذي ذكره المصنف: أنه من الإيمان بالله؛ لأنه وَصْفُهُ والكلام صفة للمتكلم، فالله تعالى موصوف بأنه متكلم إذا شاء بما شاء، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم، وكلامه تعالى لا ينفد ولا يبيد، ونوع الكلام أزلي أبدي، ومفرداته لا تزال تقع شيئًا فشيئًا بحسب حكمة الله تعالى.

والله تعالى أضافه إلى نفسه في قوله: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥] إضافة الصفة لموصوفها، فدل على أنه كلامه لفظه ومعناه ووصفه، وإذا كان كذلك كان غير مخلوق، ومن زعم أنه مخلوق من المعتزلة فقد أعظم الفرية على الله، ونفي كلام الله عن الله وصفًا، وجعله وصفًا للمخلوق.

ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه كما قاله

الكُلاَّبية والأشعرية فقد قال بِنِصْف قول المعتزلة.

فالقرآن كلام الله حيث تصرف سواء كان محفوظًا في الصدور أو مَتْلُوًا بالألسنة أو مكتوبًا في المصاحف فلا يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله كما قال المصنف، فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

وقول السلف: «كلام الله منه بَدَأَ» أي: هو الذي تكلم به وظهر منه لم يبد من غيره، وقولهم: «إليه يعود» أي: يرجع، أي: يوصف الله به.

وقيل: إن المراد بذلك ما ورد من أن من أشراط الساعة أن يرفع القرآن من الصدور والمصاحف، ولكن الأول أوْلَى.

وهذه المسألة - مسألة الكلام - عظيمة تكلم فيها الناس على اختلاف طرائقهم، ولكن المصنف رحمه الله ذكر في هذا الفصل كلامًا في «الكلام» جامعًا نافعًا مأخوذًا من الأدلة الشرعية عقلية ونقلية.

وأما كون هذا داخلاً في الإيمان بكتبه: فإن الإيمان بالكتب وخصوصًا القرآن يقتضي أن يؤمن العبد بكل ألفاظها ومعانيها، وما دلت عليه من العقائد والمعاني الجليلة، فمن لم يؤمن بجميع ذلك فلم يتم إيمانه.

واعلم أن المؤمنين بالقرآن على قسمين: كاملين، وناقصين.

أما الكاملون: فإنهم أقبلوا على القرآن فتفهموا معانيه، ثم آمنوا بها واعتقدوها كلها، وتخلقوا بأخلاقها، وعملوا بما دل عليه امتثالًا لأوامره واجتنابًا لنواهيه، ولم يفرقوا بين نصوصه كحال أهل البدع الذين آمنوا ببعض دون بعض.

وأما الناقصون: فهم قسمان:

قسم مبتدعون، وقسم فاسقون ظالمون.

أما المبتدعون: فكل من ابتدع بدعة ترك لها شيئًا من كتاب الله وسنة رسول الله، وهؤلاء على مراتبهم في البدعة بحسب ما خالفوا فيه.

وأما الفاسقون فهم الذين عرفوا أنه يجب عليهم الإيمان بالكتاب والعمل به، فاعترفوا بذلك ولكن أعمالهم ناقضت أقوالهم فتجرءوا على مخالفة الكتاب بترك كثير من واجباته والاقتحام على كثير مما نهى عنه من غير أن يجحدوا، ولكن نفوسهم الأمارة بالسوء غلبتهم واستولت عليهم.

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن آمن بكتابه إيمانًا صحيحًا حتى نكون لجميع نصوصه معتقدين، ولأوامره ونواهيه خاضعين، إنه جواد كريم.

❁❁❁

❁ فصل ❁

وَقَدْ دَخَلَ أيضًا فيما ذَكَرْناهُ مِنَ الإيمانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وبِمَلائكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ:
الإيمانُ بأنّ المؤمنينَ يرونهُ يومَ القِيامَةِ عَيانًا بأبصارهم. كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ.
وَكَمَا يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَلَا يُضامُّون فِي رُؤْيَتِهِ.
يَرَوْنَهُ سُبْحانَهُ وَهُم فِي عَرَصاتِ القِيامَةِ.
ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخولِ الجَنَّةِ كَما يَشاءُ الله سُبْحَانَهُ وَتعالى.

❁ فصل ❁

[٣١] وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاليَوْمِ الْآخِرِ الإيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونَ بَعْدَ المَوتِ.

❁ الشَّرْح ❁

وهذا ضابط جامع يدخل فيه الإيمان بالنصوص الواردة في حالة المحتضر، وفي القبر، والقيامة، والجنة والنار، وجميع ما احتوت عليه هذه الأمور من التفاصيل التي صُنِّفَتْ فيها المصنفات المطولة والمختصرة، وكلها داخلة في الإيمان باليوم الآخر.

❁❁❁

[٣٢] فَيُؤْمِنُونَ بِـ فِتْنَةِ القَبْرِ، وَبِعَذَابِ القَبْرِ وَنَعِيمِهِ.
فأَمَّا الفِتْنَة: فإنَّ النَّاس يُمتَحَنُونَ في قُبورهم، فيقال للرَّجُلِ: مَنْ ربُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟
فـ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧].
فيقول المؤمن: الله رَبِّي، والإسلامُ دِيني، ومُحَمَّد ﷺ نَبِيّي.
وأمَّا المُرْتَاب فَيَقُول: هاه هاه! لا أَدْرِي؛ سَمِعْتُ النَّاس يقولون شَيْئًا فَقُلْتُه.

فَيُضْرَبُ بِمَرزَبَةٍ مِن حَدِيدٍ، فَيَصِيح صَيْحةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْء إِلَّا الإنسان، وَلو سَمِعَها الإنسانُ لَصُعِقَ.

❁ الشَّـرْح ❁

ثم أشار المصنف إلى شيء منها فقال: فيؤمنون بفتنة القبر..وهذا الابتلاء والامتحان قد سبقت لكل عبد مقدماته في الدنيا فأما من كان مؤمنًا إيمانًا صحيحًا ثبته الله ولقنه الجواب الصحيح للملكين؛ كما قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] فذكر: أن تثبيته لهم جزاء لهم على إيمانهم في الدنيا.

فالمؤمن يجيب الجواب الصحيح، وإن كان عاميًا أو أعجميًا.

وأما الكافر والمنافق ممن كان في الدنيا غير مؤمن بما جاء به الرسول ﷺ، فإنه يستعجم عليه الجواب ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ومن حكمة الله: أن نعيم البرزخ وعذابه لا يحس به الإنس والجن بمشاعرهم؛ لأن الله تعالى جعله من الغيب ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة.

❁❁❁

[٣٣] ثُمَّ بَعْدَ هَذِه الفِتْنة: إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذابٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ القِيامَةِ الكُبْرى.فَتُعادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسادِ.

وَتَقومُ القِيامَةُ التي أَخْبَرَ الله بِها في كِتابِهِ، وعَلى لِسانِ رَسولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْها المُسْلِمُونَ.

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِمْ لِرَبِّ العالَمينْ، حُفاةً عُراةً غُرْلًا.وَتَدْنو مِنْهُمُ الشَّمْسُ. وَيُلْجِمهُمُ العَرَقُ.

وَتُنْصَبُ المَوازِينُ، فَتُوزَنُ فيها أَعْمالُ العِبادِ.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢].

وَتُنْشَرُ الدَّواوِينُ، وهي صَحَائِفُ الأعْمَالِ. فآخِذٌ كِتابَهُ بِيمِينِه، وآخِذٌ كِتابه بِشمالِهِ، أوْ من وَرَاء ظَهْرِهِ، كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤].

وَيُحاسِبُ الله الخَلائِقَ، وَيَخْلو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ كما وُصِفَ ذلك في الكتاب والسُّنَّة.

وَأَمَّا الكفارُ؛ فَلَا يُحَاسَبُون مُحَاسَبة مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُه وَسَيِّئاتُه فَإِنَّه لَا حَسَنَات لَهم، وَلكن تُعدُّ أَعْمَالهم، وتحْصى، فَيُوقفون عَلَيْها، وَيُقرَّرُونَ بِها، ويجزونَ بِهَا.

وَفِي عَرْصَةِ الْقِيَامَةِ: الحَوْضُ المَوْرُودُ لمُحمدٍ ﷺ، ماؤُهُ أَشَدُّ بياضًا من اللَّبنِ، وأَحْلَى من العَسَلِ، آنيتُهُ عَدَدَ نُجُومِ السماءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وعَرْضُهُ شهرٌ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لم يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا.

وَ«الصِّرَاطُ» مَنْصوبٌ عَلى مَتْنِ جَهَنَّمَ. وَهُوَ الجِسْرُ الذي بين الجنَّة والنَّار، يَمُرُّ النَّاس عَلَى قَدْرِ أَعْمالِهم فَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كالبرقِ الخاطف، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كالرِّيحِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كالفَرَس الجَوَاد، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَاب الإبل، وَمِنْهُم من يَعْدو عَدْوًا، وَمِنْهُم من يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم من يَزْحَف زَحْفًا.

وَمِنْهُم من يُخْطَفُ فَيُلْقَى فِي جَهَنَّم؛ فإِنَّ الجِسْر عليه كَلَاليبُ تَخْطَفُ النَّاس بأعْمالِهم، فَمَنْ مَرَّ عَلى الصِّرَاط؛ دَخَلَ الجَنَّة.

فإذا عَبَروا عليه؛ وُقِفوا عَلَى قَنْطَرة بَيْن الجَنَّة والنَّار؛ فَيُقْتَص لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإذَا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ.

وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِح بَابَ الجَنَّة مُحَمَّدٌ ﷺ. وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مُحَمَّدٌ ﷺ،

وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُل الجَنَّةَ مِنَ الأممِ أُمَّتُهُ.

وَلهُ ﷺ في القيامة ثَلاثُ شَفَعَاتٍ:

أما الشَّفَاعةُ الأُولى: فَيشفُعُ في أَهْلِ المَوقِفِ حتَّى يَقْضِى بَيْنَهُم، بَعْدَ أن يَتَراجَعَ الأنْبياءُ، آدَمُ وَنُوحٌ وَإبرَاهِيمُ وَمُوسى وَعيسى بنُ مريمَ عَنِ الشَّفاعةِ، حتَّى تنتَهِي إليهِ.

وأما الشَّفَاعةُ الثانيةُ: فيشفَعُ في أَهلِ الجنَّة أن يَدخُلُوا الجنَّة. وَهاتانِ الشَّفاعتانِ خَاصَّتان لهُ.

وأما الشفّاعةُ الثالثةُ: فيشفَعُ فيمَنْ استحقَّ النارَ ، وهذه الشفاعةُ له ولسائِرِ النبيينَ والصِّديقِيِّينَ وغيرهِم.فيشفَعُ فيمَنْ استحقَّ النارَ أن لا يَدْخُلَها ويشفع فيمَنْ دخلَهَا أن يخْرُجَ منهَا.

ويُخرجُ الله تعالى منَ النارِ أقوامًا بغير شَفاعَةٍ، بل بفضْلِهِ ورحمَتِهِ ويبقى فِي الجنَّة فضل عَمَّن دخلَهَا من أهْل الدُّنيا، فيُنشئ اللهُ لها أقوامًا فيدخِلُهم الجنةَ.

وأصنافُ ما تضمنتْهُ الدَّارُ الآخرَةُ منَ الحِسابِ وَالثَّوابِ وَالعِقابِ والجنَّة والنَّار، وَتفاصِيلُ ذلكَ مَذكُور في الكُتبِ المنزَّلةِ من السَّماء. و الآثارِ مِن العِلْم المأثور عَنِ الأنبياءِ، وفِي العِلْم المَورُوثِ عن محمَّد ﷺ مِنْ ذلكَ ما يشفِي، فَمَنْ ابتغَاهُ وَجَدَهُ .

❁ الشَّرح ❁

ذكر المصنف رحمه الله هذا الكلام النفيس، المتعلق باليوم الآخر المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة، وهو كلام واضح جامع، وأحال على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل اليوم الآخر، وقد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر وبالجنة والنار وتفاصيل ذلك شيئًا كثيرًا، وتصانيف طوالاً مبسوطة مستقلة. وكل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر.

واعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع، فإن الله نبه العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب، وذكرهم بما هو مستقر في العقول الصحيحة من أنه لا يليق بحكمة الله وحمده أن يترك الناس سدى، وأن يكونوا خُلِقُوا عبثًا لا يؤمرون، ولا يُنْهَوْنَ، ولا يثابون ولا يعاقبون، وأن العقول الصحيحة تنكر ذلك أشد الإنكار.

وكذلك نَبَّهَهُمْ على ذلك بما أوقعه من أيامه في الدنيا، من إثابة الطائعين، وتعجيل بعض ثوابهم، وعقوبة الطاغين، وإذاقتهم بعض ما وعدوا به.

وهذا شيء مشاهد محسوس متناقل بين الناس بالتواتر الذي لا يقبل الشك، ولا يزال الله يُرِي عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به الحق لأولي العقول والألباب.

وأما تفاصيل الجزاء ومقاديرها: فلا يدرك إلا بالسمع والنقول الصحيحة عن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي.

ومن الحكمة في محاسبة الخلق على أعمالهم ووزنها وظهورها مكتوبة في الصحف مع إحاطة علم الله بذلك، ليُري عباده كمال حمده، وكمال عدله وسعة رحمته، وعظمة ملكه، ولهذا قيد ملكه ليوم الدين في عدة مواضع من كتابه مع أن ملكه عام مطلق لهذه المعاني وغيرها.

❊❊❊

[٣٤] وَتؤمِنُ الفِرقةُ النَّاجيةُ أَهْلُ السنةِ والجَماعةِ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّه. والإيمَانُ بالقَدرِ عَلى دَرَجتينِ، كُلُّ دَرجةٍ تتضَمَّنُ شَيئَينِ:

فالدرجةُ الأُولى: الإيمَانُ بأَنَّ اللهَ تعالى علم مَا الخَلقُ عَامِلُون بعلمِهِ القَديمِ الذِي هُو موصُوفٌ به أزلًا ، وَعَلِمَ جميعَ أَحْوالِهم مِنَ الطَّاعاتِ وَالمَعَاصي وَالأَرْزَاقِ والآجالِ.

ثُمَّ كَتب فِي اللُّوح المحفُوظِ مقادِير الخَلْق.

فَأَوَّل مَا خلقَ اللهُ القَلمُ قال لَه: اكْتُبْ قال: مَا أكتبُ؟ قالَ: اكتُبْ مَا هُو كَائنٌ إلَى يومِ القِيامةِ.

فَما أَصَاب الإنْسَانَ لَمْ يكن لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصيبَهُ، جَفَّت الأقلَامُ، وَطُويتِ الصُّحُفُ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

وَهذا التقديرُ التابع لعلمِهِ سبحانِه يَكُون فِي مواضِعَ جُملةً وتفصِيلًا، فقد كتب في اللُّوح المَحْفوظِ مَا شاء، وإذَا خَلَقَ جَسَدَ الجَنينِ قبلَ نَفخِ الرُّوحِ فيهِ بَعَثَ إليهِ مَلَكًا، فيُؤمَرُ بأربعِ كَلماتٍ؛ فيُقالُ لهُ: اكتُب رزقَهُ وأجلَهُ وعملَهُ وشَقيٌ أم سَعيدٍ، ونحو ذَلكَ.

فهذا القدر قَد كَان يُنكرُهُ غلاةُ القَدريَّة قدِيمًا وَمنكرُوهُ اليومَ قليلٌ.

وأمَّا الدَّرجةُ الثَّانيةُ: فهِي مشيئةُ الله النافذةُ وَقُدرتُهُ الشَّامِلةُ، وهُو الإيمانُ بأنَّ مَا شَاء الله كَان ومَا لَم يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وأنَّه مَا في السَّماواتِ وَلا فِي الأرْضِ مِنْ حَركَةٍ وَلَا سُكونٍ إلا بِمَشيئةِ الله سبحانَهُ، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُريدُ، وَأنه سُبْحانَهُ وتعالى عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ مِن المَوجُودَاتِ وَالمَعْدُومَاتِ.

فَمَا مِنْ مخلوقٍ فِي الأرْضِ ولا في السَّماء إلا الله خَالِقُه سُبحانَهُ، لا خَالِقَ غيرُهُ وَلَا رَبَّ سُواهُ.

وَمع ذَلكَ فَقَدْ أَمر العِبادَ بِطاعَتِهِ وَطاعةِ رُسُلِهِ، وَنهاهُمْ عَن مَعصيَتِهِ، وَهُو سبحانه يُحِبُّ المتَّقينَ وَالمُحسِنينَ والمُقْسِطينَ، وَيرضَى عَنِ الذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ، وَلا يُحبُّ الكَافرينَ، ولا يَرضَى عَن القَوم الفَّاسقينَ، ولَا يَأمُرُ بالفَحْشَاءِ وَلَا يَرضَى لِعبادِهِ الكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الفَسَادَ.

والعِبادُ فَاعِلُونَ حَقيقةً، والله خَالقُ أَفعالَهُم، وَالعبدُ هُو المُؤمِنُ وَالكَافِرُ والبرُّ والفَاجِرُ والمُصَلِّي وَالصَّائِمُ.

وَلِلعِبادِ قُدرةٌ عَلَى أَعْمالِهم، وَلَهُم إِرَادةٌ، وَالله خَالقُهُم وَخَالِقُ قُدرَتهُم

وإرادتهم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨].

وَهذِه الدَّرَجةُ. مِنَ القَدَرِ يُكذِّبُ بهَا عَامةُ القَدريَّةِ الذِينَ سَمَّاهُم النَّبيُّ ﷺ: مَجُوسَ هَذِهِ الأمَّةِ.

وَيغلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإثْباتِ، حَتَّى سَلبُوا العَبدَ قُدْرتَهُ وَاخْتِيارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عنْ أَفْعالِ اللهِ وَأَحْكامَهُ حُكْمَها وَمَصالِحَها.

❁ الشَــرح ❁

اعلم أن الإيمان بالقدر أمره عظيم وشأنه مهم جدًا، وهو أحد أركان الإيمان الستة، وقد انحرف فيه طوائف من أهل البدع والضلال، فضلا عن المنكرين من الملحدين وغيرهم، وقد فصله الشيخ في هذا الفصل بهذا الكلام الجامع النفيس الذي لا يوجد له نظير في تحقيقه وتفصيله وجمعه وتوضيحه، وهو مجموع من نصوص الكتاب والسنة، ومن العقيدة السلفية الخالصة.

فذكر أنه لا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيق هذه الأمور الأربعة التي يفتقر كل منها إلى البقية، وقد ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا لا ينفصم إلا بالانحراف إلى الأقوال المنحرفة.

وذلك أنه ثبت في نصوص الكتاب والسنة بإحاطة علم الله بجميع الموجودات السابقة والحاضرة والمستقبلة من أعيان وأوصاف وأفعال للمكلفين وغيرهم.

وثبتت النصوص أيضًا أن الله أثبت علمه بالكائنات والموجودات دقيقها وجليلها باللوح المحفوظ في نصوص لا يمكن إحصاؤها.

وثبتت النصوص أيضًا أن مشيئة الله عامة، وإرادته القدرية شاملة، لا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولا عين ولا فعل ولا وصف، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. والنصوص على شمول قدرة الله ومشيئته لكل حادث لا تحصى.

وثبتت النصوص أيضًا أن العباد مختارون غير مجبورين على أفعالهم، وأن أعمالهم خيرها وشرها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم التي خلقها الله لهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

وبهذا ينحل عن العبد الإشكال، ويتسع قلبه للجمع بين إثبات عموم مشيئة الله وقدرته وشمولهما لأفعال العباد مع وقوعها شرعًا وحسًّا وعقلًا باختيارهم.

فمتى جمع العبد هذه المراتب الأربع وآمن بها إيمانًا صحيحًا كان هو المؤمن بالقدر حقًّا الذي يعلم أن الله بكل شيء عليم، وعلمه بالحوادث قد أودعه في اللوح المحفوظ، والحوادث كلها تجري على ما علمه الله وكتبه وتقع بأسباب ربطها العزيز الحكيم بمسبباتها.

والأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره. ولهذا لما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**مَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ**».

فقالوا يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرون لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثم قرأ ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]» متفق عليه.

وتوضيح ذلك أن العبد إذا صلى وصام وعمل الخير أو عمل شيئًا من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح وذلك العمل السيئ، وفعله المذكور بلا ريب واقع باختياره، وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل.

وكما أن هذا هو الواقع، فهو الذي نص الله عليه في كتابه ونص عليه رسوله، حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها، وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ومثابون عليها، ومذمومون إن كانت سيئة ومعاقبون عليها.

فقد تبين بلا ريب واتضح أنها واقعة منهم وباختيارهم وأنهم إن شاؤوا فعلوا، وإن شاؤوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلًا وحسًّا وشرعًا ومشاهدة، مع ذلك فإذا أردت أن تعرف أنها ـ وإن كانت كذلك واقعة بينهم ـ كيف تكون داخلة في القدر وكيف تشملها المشيئة؟

فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟

فيقال: فهي بقدرتهم وإرادتهم، وهذا يعترف به كل أحد.

ويقال أيضًا: من خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم؟

فالجواب الذي يعترف به كل أحد أن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال كما أنه الخالق للأفعال.

فهذا هو الذي يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار.

ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة، وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ: «**أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ**». وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم ولم يعنهم؛ لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولَّاهم ما تولوه لأنفسهم.

ولما ضاق تحقيق هذا المقام على قلوب كثير من الخلق انحرفت هنا طائفتان من الناس:

طائفة يقال لهم الجبرية؛ غلو في إثبات القدر وتوهموا أن العبد ليس له فعل حقيقة، وأنه لا يمكن أن يثبت للعبد عموم المشيئة، ويثبت للعبد اختيارًا.

والطائفة الأخرى: القدرية، قابلتهم فشهدت وقوع أفعالهم بقدرتهم واختيارهم، وتوهموا أنه لا يمكن مع ذلك أن تدخل في قضاء الله وقدره. فلم تتسع قلوب الجبرية والقدرية للجمع بين الأمرين، فرد كل منهما قسمًا كبيرًا من نصوص الكتاب والسنة المؤيدة بالعقل الصحيح، وهدى الله أهل السنة والجماعة فآمنوا بجميع الكتاب والسنة، وآمنوا بقضائه وقدره وشمولهما لكل موجود وبشرعه وأمره، وأن العباد فاعلون حقيقة مختارون.

فإيمانهم بعموم القدر يوجب لهم الاستعانة التامة بربهم؛ لعلمهم أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن له في عباده المؤمنين ألطافا وتيسيرًا لا ينال إلا بقوة الإيمان والتوكل، وأوجب لهم إيمانهم بالشرع والأمر والنهي والأسباب وأنها مرتبطة بمسبباتها شرعًا قدرًا؛ الجد والاجتهاد في فعل الأسباب النافعة الدينيةوالدنيوية، وبذلك تعرف أن الإيمان الصحيح سبب لكل خير.

ومن فوائد الإيمان بالقضاء والقدر: أنه يوجب للعبد سكون القلب وطمأنينته وقوته وشجاعته؛ لعلمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

كما أنه يسلي العبد عن المصائب ويوجب له الصبر والتسليم والقناعة بما رزقه الله،

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١] قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم.

ومن **فوائده**: أنه يوجب للعبد شهود منة الله عليه فيما يمن به عليه من فعل الخيرات وأنواع الطاعات، فلا يعجب بنفسه ولا يدل بعمله؛ لعلمه أنه تعالى هو الذي تفضل عليه بالتوفيق والإعانة وصرف الموانع والعوائق، وأنه لو وكل إلى نفسه لضعف وعجز عن العمل وعن الثبات عليه.

كما أنه سبب لشكر نعم الله فما ينعم عليه من نعم الدين والدنيا. فإنه يعلم أنه ما بالعبد من نعمة إلا من الله وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة.

❀❀❀

❁ فصل ❁

[٣٥] وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الدِّينَ والإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ القَلْبِ وَاللِّسَانِ وَعَمَلُ القَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ، وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ.

وَهُم مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ، بَلْ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى فِي آيَةِ القَصَاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

❁ الشَّرح ❁

قد دلَّ الكتاب والسنة على ما قاله الشيخ، وأجمع على ذلك سلف الأمة، فكم من آية قرآنية وأحاديث نبوية أطلقت على كثير من الأقوال والأعمال اسم الإيمان.

فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، ويدخل فيه العقائد التي يجب اعتقادها من كل ما احتوت عليه من هذا الكتاب، ويدخل أعمال القلوب كالحب لله ورسوله وإرادة الله والإنابة إليه.

والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله: أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها القلب ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله.

وضابطها: محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه لله، وهذه الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح، فالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد- من الإيمان، وبر الوالدين وصلة الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه المتنوعة- كلها من الإيمان.

وكذلك الأقوال؛ فقراءة القرآن وذكر الله والثناء عليه والدعوة إلى الله والنصيحة لعباد الله وتعلم العلوم النافعة - كلها داخلة في الإيمان؛ ولهذا لما كان الإيمان اسمًا لهذه الأمور ترتب عليه أنه يزيد وينقص، كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة،

وكما هو ظاهر مشاهد في تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وجوارحهم.

ومن زيادته ونقصه أن الله قَسّم المؤمنين إلى ثلاث طبقات:

سابقون بالخيرات: وهم الذين أدَّوْا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فهؤلاء المقرَّبون.

ومقتصدون: وهم الذين أدَّوْا الواجبات وتركوا المحرمات.

وظالمون لأنفسهم: وهم الذين تجرؤوا على بعض المحرمات، وقصروا في بعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم.

فهذا من أكبر البراهين على زيادة الإيمان ونقصه. فما أعظم التفاوت بين هؤلاء الطبقات.

ومن وجوه زيادته ونقصه: أن المؤمنين متفاوتون في علوم الإيمان.

فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير، فازداد به إيمانه وتم به يقينه، ومنهم ما هو دون ذلك ودون ذلك، حتى تصل الحال إلى أن من المؤمنين من معه إيمان إجمالي ولم يتيسر له من التفاصيل شيء، وهو مع ذلك مؤمن. ومعلوم الفرق بين هذه المراتب.

ومن وجوه زيادة الإيمان ونقصه: أن المؤمنين متفاوتون تفاوتًا كبيرًا في أعمال القلب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها، وهذا شيء محسوس.

ومن وجوه زيادته ونقصه: أن من المؤمنين من لم تجرح المعاصي إيمانه وإن وقع منه شيء من ذلك بادر إلى التوبة والإنابة. ومنهم من هو متجرئ على كثير من المعاصي، ومعلوم الفرق بينهما.

ومن وجوه زيادته ونقصه: أن من المؤمنين من هو واجد حلاوة الإيمان، **وقد ذاق** طعمه واستحلى الطاعات، وتأثر قلبه بالإيمان، ومنهم من لم يصل إلى ذلك.

❁❁❁

[٣٦] وَلا يَسْلُبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ اسْمَ الإيمَانِ بالكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُهُ المُعْتَزِلَةُ، بَلْ الفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإيمَانِ فِي مثل قَوْلِهِ: ﴿ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤۡمِنَةٍ ﴾ [النساء:٩٢].

وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ المُطْلَقِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وَقَول النبي ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَات شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِليهِ فِيهَا أَبْصَارَهُم حِينَ يَنْتَهِبُهَا، وَهُو مُؤْمِنٌ».

وَيَقُولُون: هُو مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرتِهِ، فَلَا يُعْطَى الاسْمَ المُطْلَقَ وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ.

❁ الشَّرْح ❁

وهذا تحقيق مذهب السلف الذي باينوا فيه الخوارج المارقين الذين يسلبون العصاة اسم الإيمان ويخلدونهم في النار، وباينوا فيه المعتزلة الذين وافقوا الخوارج في المعنى وخالفوهم في اللفظ.

أما الكتاب والسنة فإنهما دلا من وجوه كثيرة على أن العبد يكون فيه خير وشر، وإيمان، وخصال كفر، وخصال نفاق، لا تخرجه عن الإيمان بالكلية. وأن الإيمان المطلق إنما يتناول الإيمان الممدوح الكامل في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:٢، ٣] ونحو ذلك من النصوص.

وأما مطلق الإيمان الذي يدخل فيه الإيمان الكامل والإيمان الناقص، فإنه قد ثبت النصوص في الكتاب والسنة على إطلاقه على العصاة من المؤمنين وأجمع على ذلك سلف الأمة وأئمتها، قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]، ومن المعلوم: دخول أي مؤمن كان، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فسماهم إخوة بعد وجود الاقتتال.

ويقال أيضًا في توضيح ذلك: إن الإيمان الممدوح الذي يُؤتى به في سياق الثناء على أهله إنما يتناول الإيمان الكامل، والإيمان الذي يقال لصاحبه إنه من المؤمنين

يدخل فيه هذا وهذا.

ويقال أيضًا: الإيمان الذي يمنع صاحبه من التجرئ على الزنا وشرب الخمر والسرقة ونحوها من الفواحش هو الإيمان الكامل. والإيمان الذي لا يمنع من ذلك هو الناقص. وهذا وجه الحديث الذي ذكره المنصف: (**لا يزني الزاني . . .**) إلخ.

ويقال أيضًا: الإيمان الذي يمنع دخول النار هو الإيمان الكامل، والإيمان الذي يمنع من الخلود فيها يكون إيمانًا ناقصًا.

وقد تواترت الأحاديث بخروج من في قلبه أقل شيءٍ من الإيمان من النار.

ويقال أيضًا: الأحكام الأصولية والفروعية تدور مع أسبابها وعللها، وإذا وجد في العبد أسباب متعارضة أعمل كل سبب في مسببه، فالطاعات سبب لدخول الجنة والثواب، والمعاصي سبب لدخول النار والعقاب، فأُعمل كل واحد في مقتضاه.

ولكن لما كانت رحمة الله قد سبقت غضبه، وفضله على العباد قد غمرهم وتنوع عليهم من كل وجه، كان أقل القليل من الإيمان له الأثر المستقر الذي يضمحل ضده من كل وجه، وإن كان معه شيء من الإيمان فإن مآله إلى الخلود في دار النعيم.

❁❁❁

فصل

[٣٧] وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِم وَأَلْسِنَتِهِم لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُم اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

الشَّرْح

وهذا الدعاء الصادر ممن اتبع المهاجرين والأنصار بإحسان يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول الله وثنائهم عليم؛ لأن من دعا في أمر من الأمور فهو ساع في تحقيقه، مجتهد في تكميله، متضرع لربه أن يتم ذلك له، وأولى من دخل في هذا الدعاء الصحابة الذين سبقوا إلى الإيمان، وحققوه وحصل لهم من براهينه وطرقه ما لم يحصل لغيرهم.

ونفي الغل من جميع الوجوه يقتضي تمام المحبة لهم، فهم يحبون الصحابة لفضلهم وسبقهم واختصاصهم بالرسول ولإحسانهم إلى جميع الأمة؛ لأنهم هم المبلغون لهم جميع ما جاء به نبيهم، فما وصل لأحد علم ولا خير إلا على أيديهم وبواسطتهم.

❀❀❀

[٣٨] وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ».

الشَّرْح

فعلى الأمة أن يطيعوا النبي ﷺ في كل أمر، وخصوصًا في هذا الأمر الخاص، وأن يوقروا أصحابه ويحترمونهم، ويعتقدوا أن العمل القليل منهم يفضل العمل الكثير من غيرهم، كما في هذا الحديث، وهذا من أعظم براهين فضلهم على غيرهم.

❀❀❀

[٣٩] وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِم وَمَرَاتِبِهِم، فَيُفَضِّلُون مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ- وَهُو صُلْحُ الحُدَيبيةِ- وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَق مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ.

❁ الشَّرْح ❁

فقد ذكر الله ورسوله للصحابة فضائل كثيرة على الأمة، فيجب على الأمة الإيمان بها، وأن يحبوا الصحابة لأجلها.

وقيل لصلح الحديبية فتح؛ لما ترتب عليه من المصالح والخير الكثير ودخول الكثير في الإسلام؛ ولهذا كان من أسلم قبل ذلك وأنفق وقاتل أفضل ممن فعل ذلك بعده؛ لما حصل لهم من السبق في الإسلام وقت ضعف المسلمين، وكثرة الأعداء، ووجود الموانع الكثيرة والمصاعب الكثيرة في طريق الإسلام.

❁❁❁

[٤٠] وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ، وَيُؤْمِنونَ بِأَنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ - وَكَانُوا ثَلاثَمَائِةٍ وَبِضْعَةَ عَشر-: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».

❁ الشَّرْح ❁

قال المصنف: (ويقدمون المهاجرين على الأنصار)؛ وهذا لأن المهاجرين جمعوا الوصفين النُّصرة والهجرة؛ ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين. وقد قدم الله ذكر المهاجرين على الأنصار في سورة التوبة والحشر، وهذا التفضيل للجملة على الجملة لا لكل فرد من هؤلاء على كل فرد من الآخرى.

❁❁❁

[٤١] وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعمائَةٍ.

❁ الشَّرْح ❁

أي: في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]،

وكان عددهم يتراوح ما بين ألف وأربعمائة أو خمسمائة، فأهل بدر وأهل بيعة الرضوان يشهد لهم بالجنة والنجاة من النار على وجه أخص من الشهادة بذلك لجميع الصحابة في قوله: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد:١٠]كما أنه أخص من هؤلاء الأشخاص الذين شهد لهمﷺ بالجنة ولهذا قال المصنف:

❁❁❁

[٤٢] وَيَشْهَدُونَ بِالجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ الله بالجنة، كَالعَشْرَةِ، وَكثَابِتَ بنَ قَيْس بنَ شِمَاسٍ، وَغَيرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ.

❁ الشَّرح ❁

وهذا من أعظم الفضائل؛ تخصيص النبي ﷺ لهم بالشهادة بالجنة، وهو من جملة براهين رسالته ﷺ؛ فإن جميع من عينه النبي ﷺ بالشهادة له بالجنة ولوازمها لم يزالوا مستقيمين على الإيمان حتى وصلوا إلى ما وُعِدُوا به رضي الله عنهم.

❁❁❁

[٤٣] وَيُقِرّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِي بن أَبِي طَالِبٍ وَعَنْ غَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْر ثُمَّ عُمَرُ، وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهَ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَت الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي البَيْعَةِ.

❁ الشَّرح ❁

أي: والخلافة، وخلافة أحد الاثنين لم تكن إلا بعد مشاورة جميع المسلمين على اختلاف طبقاتهم، والقصة مشهورة.

❁❁❁

[٤٤] مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السَّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍ رضي الله عنهما بَعْدَ اتفَاقِهِم عَلَى تَقدِيم أَبِي بَكْر وَعُمَرَ رضي الله عنهما ، أَيُّهُمَا أَفضَلُ، فَقَدَّم قَومٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا أو ربعوا بعلي وَقَدَّم قَومٌ عَلِيًّا وَقَومٌ وقَّفُوا.

لَكِنْ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقدِيمِ عُثْمَانَ ثُمَّ عَلي، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ المَسْأَلَةُ-

مَسْأَلةُ عثْمَانَ وَعَلِيّ - لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُور أَهْلِ السُّنَّةِ، لَكِنَّ المسألَةَ الَّتِي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا مَسْأَلَةُ الخِلَافَةِ.

وَذَلِكَ أَنَّهُم يُؤمِنُونَ بأَنَّ الخليفة بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ أَبُو بَكْر، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤلَاءِ فَهُو أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِه.

❁ الشَّرْح ❁

يريد المؤلف رحمه الله أن الخلاف الكائن بين الأمة على وجهين:

أحدهما: الخلاف في الفروع والمسائل الاجتهادية التي إذا اجتهد فيها الحاكم من قاض ومفتٍ ومصنف ومعلم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

الوجه الثاني: الخلاف في المسائل الأصولية، كمسائل صفات الباري والقدر والإيمان ونحوها، وهذا يُضَلَّلُ فيها المخالفون؛ لما دل عليه الكتاب والسنة. ولما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فمسألة الخلافة وتقديم علي على عثمان فيها يعد من البدع التي من اعتقدها فهو في الغالب متشيع، وقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، كما قال ذلك غير واحد من السلف.

وأما التفضيل بينهما: فإنها مسألة خفيفة من جنس مسائل الخلاف في المسائل الاجتهادية.

❁❁❁

[٤٥] وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ الله ﷺ وَيَتولَّوْنَهُم وَيَحْفَظُونَ فِيهِم وصِيَّةَ رَسُولِ الله ﷺ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غدير خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُم اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي» وَقَالَ أَيْضًا لِلعَبَّاسِ عَمِّهِ، وَقَدِ اشْتَكَى إِليهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِم، فَقَال: «والذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُم للهِ وَلِقَرابَتِي».

❁ الشَّرْح ❁

فمحبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة من وجوه:-

منها: أولًا لإسلامهم وفضلهم وسوابقهم.

ومنها: لما تميزوا به من قرب النبي ﷺ واتصال نسبه.

ومنها: لما حث عليه ورغب فيه، ولما في ذلك من علامة محبة الرسول ﷺ.

❁❁❁

[٤٦] وَقالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيش بَنِي هَاشِم، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

❁ الشَّرْح ❁

فهو ﷺ خيار من خيار من خيار، وقد جمع الله له أنواع الشرف من كل وجه.

❁❁❁

[٤٧] وَيَتولَّونَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنينَ وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ خُصُوصًا خَدِيجَةُ ﵂ أُمُّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ وَأَول مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَكَان لَهَا مِنْهُ المَنْزِلَةُ العَالِيَة. وَالصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ التِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ-: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

❁ الشَّرْح ❁

فإن جميع أولاده الذكور منها إلا إبراهيم فإنها من سريته مارية القبطية.

وعائشة وخديجة هما أفضل نساء النبي ﷺ. وقد اختلف العلماء أيهما أفضل. والتحقيق أن لكل واحدة منهن من الفضائل والخصائص ما ليس للأخرى؛ فلخديجة من السبق ومعاونة النبي ﷺ على أمره في أول الأمر وتثبيته، وكون أكثر أولاد النبي ﷺ منها- ما ليس لعائشة . ولعائشة من العلم والتعليم ونفع الأمة ما ليس لخديجة رضى الله عنهما.

❁❁❁

[٤٨] وَيَتبرءونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الذِينَ يَبْغضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُم، وَمن طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الذِينَ يُؤْذُونَ أَهلَ البيتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَر بَينَ الصَّحَابَةِ وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ المَرْوِيَّةَ فِي

مَسَاوِيهم:
مِنْهَا مَا هُو كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنقص وَغيِّر عَنْ وَجْهه، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُم فِيهِ مَعْذُورنَ، إمَّا مُجْتَهِدُون مُصِيبُونَ وَإمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

❁ الشَّـرْح ❁

وأول من سمى الروافض بهذا اللقب (زيد بن علي) الذي خرج في أوائل دولة بني العباس، وبايعه كثير من الشيعة، ولما ناظروه في أبي بكر وعمر وطلبوا منه أن يتبرأ منهما فأَبَى رحمه الله - تفرقوا عنه، فقال: (رفضتموني) فمن يومئذ قيل لهم: الرافضة، وكانوا فرقًا كثيرة؛ منهم الغالية، ومنهم من هم دون ذلك، وفرقهم معروفة.

وأما النواصب فهم الذين نصبوا العداوة والأذية لأهل بيت النبي ﷺ، وكان لهم وجود في صدر هذه الأمة؛ لأسباب وأمور سياسية معروفة، ومن زمن طويل ليس لهم وجود والحمد لله.

❁❁❁

[٤٩] وَهُم مَع ذَلكَ لَا يَعتقِدُونَ أنَّ كلَّ وَاحدٍ مِنَ الصَّحابَةِ مَعصُومٌ عَن كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصغَائِرِه، بَلْ تَجوزُ عَليهِم الذُّنُوبُ في الجُمْلَةِ.

وَلُهم مِنَ السَّوَابقِ والفَضَائِل مَا يُوجِبُ مَغْفِرَة مَا يَصْدُر مِنْهُم إنْ صَدَرَ، حتَّى أنهُ يَغْفرُ لَهم مِنَ السَّيئاتِ مَا لَا يَغْفِر لِمَنْ بَعْدَهُم؛ لأنَّ لَهُم مِنَ الحَسَناتِ التِي تَمْحُو السَّيئاتِ مَا لَيسَ لِمَنْ بَعْدَهم. وَقَد ثَبَتَ بِقولِ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُم خَيرُ القُرُونِ، وَأَنَّ المُدَّ مِن أَحَدِهِم إذَا تَصدَّق بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِن جَبلِ أُحُد ذَهَبًا مِمنْ بَعْدَهُم.

❁ الشَّـرْح ❁

أي: وهذه الأمور إذا قوبلت بالمساوئ - على فرض أن هناك مساوئ- اضمحلت تلك المساوئ معها، ولا يقاربهم أحد في شيء من ذلك ﷺ.

❁❁❁

[٥٠] ثمَّ إذا كَان قدْ صدرَ عن أحَدِهم منهُم ذَنبٌ فيكُون قَدْ تابَ منهُ، أو أَتى بِحَسَناتٍ تَمْحُوه، أو غُفِر لَهُ بِفَضْل سَابقتِهِ، أَو بشفَاعَةِ محمَّد ﷺ الذِينَ هُم أحقُّ الناسِ بشفَاعَتهِ ﷺ، أو ابْتُلي ببلاءٍ في الدُّنيا كفِّر بهِ عَنهُ.

فإذَا كَان هذا في الذُّنوبِ المُحقَّقة، فكيفَ بالأُمور التِي كَانُوا فيهَا مُجتهِدِينَ إنْ أَصابُوا فلهُم أَجْرانِ، وَإِنْ أَخْطَأوا فَلهُم أَجرٌ، وَالخطأ مَغْفُورٌ لَهُمْ.

ثم القَدْرُ الذِي يُنْكر مِن فِعْل بَعْضِهم قَليل نَزر مَغْمُورٌ في جَنبِ فَضائِلِ القومِ وَمَحاسِنِهم من الإيمَانِ باللهِ ورسولِهِ، والجِهَادِ في سَبيلِهِ، وَالهِجْرَةِ والنُّصْرَةِ، والعِلْم النَّافِع، والعَمَلِ الصَّالحِ.

وَمَنْ نظَر فِي سِيرةِ القومِ بِعِلْم وَبصيرَةٍ وَما مَنَّ اللهُ عَليهم به مِنَ الفَضَائِلِ عَلِم يَقينًا أَنَّهم خَيرُ الخَلقِ بَعدَ الأَنبياءِ، لا كَان وَلا يَكُونُ مِثْلُهم، وأَنَّهُم الصَّفْوةُ مِن قُرونِ هذِهِ الأُمَّةِ التِي هِي خَيرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمِها عَلى اللهِ تعالى.

❁ الشَّـرْح ❁

وهذا كلام نفيس في غاية التحقيق والإبداع، ولا زيادة عليه في إقامة البرهان على كمال فضل الصحابة رضى الله عنهم، لا يحتاج إلى شرح أو بيان.

❁❁❁

❁ فصل ❁

[٥١] وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ، وَمَا يَجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِم مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ العُلُومِ وَالمُكَاشَفَاتِ، وَأَنْوَاعِ القُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، كَالمَأْثُورِ عَنْ سَلَفِ الأُمَّةِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَسَائِر قُرونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَومِ القِيَامَةِ.

❁ الشَّرْح ❁

تواترت نصوص الكتاب والسنة والوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لأنبيائهم.

وكرامتهم في الحقيقة تفيد ثلاث قضايا:

أعظمها: الدلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته، وأنه كما أن لله سننًا وأسبابًا تقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعًا وقدرًا، فإن لله أيضًا سننًا أخرى لا يقع عليها علم البشر، ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم.

فمعجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، بل وأيام الله وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة - كلها تدل دلالة واضحة أن الأمر كله لله، والتقدير والتدبير كله لله، وأن لله سننًا لا يعلمها بشر ولا ملك.

فمن ذلك قصة أصحاب الكهف، والنوم الذي أوقعه الله بهم تلك المدة العظيمة، وقيض أسبابا متنوعة لحفظ دينهم وأبدانهم، كما ذكر الله في قصتهم.

ومنها ما أكرم الله به مريم بنت عمران، وأنه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

وكذلك: حملها وولادتها بعيسى على ذلك الوصف الذي ذكر الله، وكلامه في المهد، هذا فيه كرامة لمريم، ومعجزة لعيسى عليه السلام.

وهبته تعالى الولد لإبراهيم من سارة وهي عجوز عقيم على كبره، كما وهب لزكريا يحيى على كبره وعقم زوجته، وهذه معجزة للنبي وكرامة لزوجته.

وقد أطال المؤلف النفس، وبسط الكلام في هذا الموضوع في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وذكر قصصًا كثيرة متوافرة تدل على هذه القضية.

القضية الثانية: أن وقوع الكرامات للأولياء في الحقيقة معجزات للأنبياء؛ لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعة نبيهم التي نالوا بها خيرًا كثيرًا، من جملتها الكرامات.

القضية الثانية: أن كرامات الأولياء هي من البشرى المعجلة في الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس:٦٣].

وهي: كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم. ومن ذلك الكرامات. ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في أي وقت وفي أي زمن، وقد رأى الناس منها العجائب والأمور الكثيرة، ولم ينكرها إلا زنادقة الفلاسفة، وليس غريبًا عليهم، فإنه فرع عن جحودهم وإنكارهم لرب العالمين وقضائه وقدره. وقد أنكرها أيضًا طائفة من أهل الكلام ظنًّا منهم أن في إثباتها إبطال لمعجزات الأنبياء، وهذا وهم باطل، أبطله المؤلف في كتاب (النبوات) وغيره من كتبه.

فأهل السنة والجماعة يعترفون بكرامات الله لأوليائه إجمالًا وتفصيلًا، ويثبتون ذلك على وجه التفصيل، كل ما ورد عن المعصوم ﷺ، وكل ما تحقق وقوعه. ولكن قد أدخل كثير من الناس بالكرامات أمورًا كثيرة، اخترعوها، وافتروها، وأهل السنة أبعد الناس عن التصديق بالخرافات والكذب المفترى، وأعرفهم بالطرق التي يتبين بها كذب الكاذبين وافتراء المفترين.

❀❀❀

❁ فصل ❁

[٥٢] ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أهلِ السَّنة وَالجمَاعةِ اتباعُ آثَارِ رَسُول الله ظَاهِرًا وَبَاطنًا، وَاتِّبَاع سَبيلِ السَّابقينَ الأوَّلين مِنْ المُهاجِرينَ وَالأَنْصار، وَاتِّبَاعِ وَصِيَّة رَسُول الله ﷺ حيثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٍ».

وَيعْلَمُون أَنَّ أصدَقَ الكَلَامِ كَلَامُ الله، وخيرَ الهَدْي هَدْيُ محمد ﷺ، وَيُؤْثِرُون كَلَامَ الله عَلَى كَلَامِ غَيْرِهِ مِنْ كلام أَصْنَافِ النَّاسِ فيقدِّمُونَ هَدْيَهُ عَلى هَدْي كُلِّ أَحَدٍ؛ وَبهَذا سُمُّوا (أهل الكتاب والسنة).

وسُمُّوا: (أهلَ الجَمَاعَةِ)؛ لأنَّ الجمَاعَةَ هِيَ الاجْتِماعِ وَضدُّها الفُرْقَةُ، وإنْ كانَ لفظُ الجَماعةِ قَد صَار اسْمًا لِنفسِ القَومِ المُجتمعِينَ. والإجماعُ هُو الأَصْلُ الثَّالثُ الذِي يُعْتَمَدُ عليهِ فِي العِلْم والدِّين.

وَهُم يزِنُونَ بِهذِهِ الأُصُول الثلاثةِ جَمِيعَ مَا عليهِ النَاسُ مِن أقوالٍ وأعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَو ظَاهِرَةٍ، مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بالدِّين.

وَالإِجْمَاعُ الذِي يَنضبِطُ هُو: ما كانَ عليهِ السَّلفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُم كَثُر الاختِلافُ وَانتشرتِ الأمَّةُ.

❁ الشَّرْح ❁

لما ذكر طريقة أهل السنة في مسائل الأصول المعينة، ذكر طريقهم الكلي في أخذ دينهم أصوله وفروعه، وأنهم سلكوا في ذلك الصراط المستقيم، والعصمة النافعة للكتاب والسنة، واتبعوا أعظم الناس معرفة وعلما واتباعا للكتاب والسنة، وهم الصحابة رضي الله عنهم عمومًا، والخلفاء الراشدين خصوصًا، فسلكوا إلى الله مستصحبين هذه الأصول الجليلة، وما جاءهم مما قاله الناس أو ذهبوا إليه من المقالات وزنوه بمعيار الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة؛ فاستقامت

طريقتهم، وسلموا من بدع الأقوال المخالفة لما عليه الرسول وأصحابه في الاعتقادات، كما سلموا من بدع الأعمال، إذ لم يتعبدوا ولم يشرعوا إلا ما شرعه الله ورسوله.

❁❁❁

❁ فصل ❁

[٥٣] ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

❁ الشَّـرْح ❁

أي: باليد ثم باللسان ثم بالقلب، تبع للقدرة والمصلحة، ويسلكون أقرب طريق يحصل به المقصود بالرفق والسهولة، متقربين بنصيحة الخلق إلى الله، قاصدين نفع الخلق وإيصالهم إلى كل خير وكفهم عن كل شر، ساعين في ذلك بحسب وسعهم.

❁❁❁

[٥٤] وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا.

وَيُحَافِظُونَ عَلَى الجَمَاعَاتِ.

❁ الشَّـرْح ❁

وذلك لأن غرضهم الوحيد تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها.

فلا يمتنعون من إعانة الظالم على الخير وترغيبه فيه، قولًا وفعلًا، فيشاركون الولاة الظلمة في الخير، ويفارقونهم في الشر، ويحرصون على الاتفاق، وينهون عن الافتراق.

❁❁❁

[٥٥] وَيدينُونَ بالنَّصِيحَةِ للأمَّةِ، ويَعتقِدُون مَعْنى قَولِهِ ﷺ: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعْضًا» وشَبَّكَ بينَ أَصَابِعِهِ.

وَقَولُه ﷺ: «مَثلُ المُؤمنينَ فِي تَوادِّهِم وَتراحُمِهم كَمَثلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى مِنْه عُضو تَدَاعَى لَه سَائرُ الجَسَدِ بالحُمَّى وَالسَّهر».

وَيأمُرونَ بالصَّبر عِنْد البَلاءِ، والشُّكر عِنْد الرَّخاءِ، وَالرِّضَى بِمُرِّ القَضَاءِ.

وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ.

وَيعتقِدُونَ مَعْنى قَولِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤمنينَ إيمَانًا أَحْسَنُهم خُلُقًا».

وَيَنْدُبونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

وَيَأمُرونَ ببرِّ الوَالدَينِ، وَصِلةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الجُوارِ، والإِحْسَانِ إِلَى اليَتَامَى والمَسَاكِينِ وَابنِ السَّبيلِ، وَالرِّفْقِ بالمَمْلوكِ.

وَيَنْهَوْن عَنِ الفَخْرِ وَالخُيلاءِ، وَالبَغْي، والاسْتِطَالةِ عَلَى الخَلْق بِحَقٍّ أَوْ بِغَيرِ حَقٍّ.

وَيأمُرونَ بِمَعالِي الأَخْلَاقِ، وَيَنْهَونَ عَن سِفْسَافِهَا.

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَه وَيَفعلُونهُ مِنْ هَذا وَغيرِهِ فَإنَّما هُم فِيه مُتَّبعونَ للكِتَابِ والسُّنةِ، وَطَرِيقَتِهِم هِي دِينُ الإِسْلَام الذِي بُعِثَ الله محمدًا ﷺ.

ولَكِنْ لَمَّا أَخْبَر النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةٍ، كُلُّها فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ، وَهِي الجَمَاعَةِ، وفي حَدِيثٍ عَنْه أنه قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَليهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي» - صَار المُتَمسِّكُونَ بِالإِسْلَامِ المَحْضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ، وَفِيهم الصِّديقُونَ وَالشُّهَداء والصَّالِحُونَ، وَمِنْهُم أَعْلامُ الهُدَى وَمصابِيحُ الدُّجَى، أُولُو المَنَاقبِ المَأثورَةِ، وَالفَضَائِلِ المَذْكُورةِ، وَفيهِم الأَبْدَال: الأَئِمَّةُ الذِينَ أَجْمعَ المُسْلِمُون عَلَى هِدَايَتِهم، وَدِرَايَتِهم وَهُم الطَّائِفَةُ المَنْصُورةُ الذِينَ قَال فِيهِم النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتي عَلى الحَقِّ ظَاهِرَةً، لَا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم وَلَا مَنْ خَالَفَهُم حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

فَنسْأَلُ الله أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُم، وَأَنْ لَا يَزِيغَ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً، إِنَّهُ هُو الوَهَّابُ والله أَعْلَمُ.

❁ الشَّـرْح ❁

وهذا كلام جامع واضح نادر، جمعه في موضع واحد، لا يحتاج إلى شرح ولا إلى مزيد من الإيضاح.

❁❁❁

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

قال ذلك وكتبه معلقه: **عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي**.

غفر الله له، ولوالديه، ولجميع المسلمين.

وتم الفراغ منه في ٨ جمادى الأولى عام ١٣٦٩ هجرية.

❁❁❁

فهرس الموضوعات